



# فن الزهد فی شعر البارودی

الدكتور

مصطفى مصطفى السطوي عطا

١٩٩٨ م

١٤١٨ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ  
وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَصْلِحْ  
لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنَّكَ إِلَهٌ لِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ »

صدق الله العظيم





#### مقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .  
سيدنا محمد النبي العربي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين .  
وبعد :

فهذه وقفات مع فن من الفنون التي أجاد فيها باعث الشعر العربي  
من رقدته في العصر الحديث الشاعر محمود سامي البارودي وهو فن  
الزهد . وحاولت بما توضح معالم هذا الفن عند رائد الشعر العربي في  
العصر الحديث ، وبيان ما يحتويه من معانٍ ومحاتٍ وقيمٍ دينية وأدبية .

وقد دلفني إلى كتابة هذه الوقفات ما راعني من ثراء شعر البارودي  
في هذا الغرض ، مع ما لاحظته من إغفال من تحدثوا عن الشاعر ودرسوا  
شعره لهذا الجانب ؛ فلم يخصصوا لهذا الفن في دراستهم للشاعر وشعره  
نصيباً كافياً يبرزه ويبين مكانته بين فنون شعر البارودي .

لذا قمت بهذه الدراسة حول فن الزهد في شعر البارودي بعد أن  
عحصت - من سنوات مضت - شعر الرثاء عنده يبحث قصير نشر في  
العدد الثاني من حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

بالمصورة الصادر في عام ١٩٨٩ م.<sup>(١)</sup> إيماناً مني بسد لثغرة من ثغرات الدراسة حول شعر البارودي ، وبأن الدراسة المتخصصة في جانب أو فن معين من فنون الشعر عند أحد الشعراء أليد وأجدي في تجلية هذا الفن من الدراسة العامة لفنون شعر الشاعر.

وقد جاءت هذه الدراسة بعد المقدمة في تمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة . وجاء التمهيد مختصراً عن الشاعر وأبرز سمات شعره . وجاء الفصل الأول في مفهوم الزهد ، وفي الفرق بين الزهد والتصوف ، وعن تاريخ هذا الفن ودوافعه في الأدب العربي قبل عصر البارودي .

أما الفصل الثاني فتحدثت فيه عن أهم الأفكار التي تناوذا البارودي في شعر الزهد ، وأبرز المعاني التي تناوذا تحت كل فكرة ، مع ذكر الأمثلة لكل ما تحدثت عنه . والفصل الثالث في أهم الظواهر الفنية التي اتسم بها شعر الزهد عند البارودي . وجاءت الخاتمة في ذكر أهم النتائج التي خرجت بها من البحث في فن الزهد في شعر البارودي . وأتبع الخاتمة بفهرس لمراجع البحث ، ثم بفهرس آخر لموضوعات البحث ومباحته .

وقد قصدت بهذا العمل تجلية ما ضمنته من موضوعات ، وإعطاء القارئ صورة واضحة عن شعر الزهد وخصائصه وموقعه بين

موضوعات الشعر في ديوان البارودي . وبذلك في مسيل ذلك ما استطعت من جهد . فإن كنت قد وفقت فيما قصدت إليه فهذا ما رجوه وأحمد الله عليه . وإن كان هناك من زلات وأعطياء فإدعو الله العفو والمغفرة . وأرجو من القارئ الكريم أن يتجاوز عنها ويغفرها لي . فليكن لا أعدو عن كون إنسانا يخطئ ويصيب وليس هناك إنسان يخلو من كل العيوب.

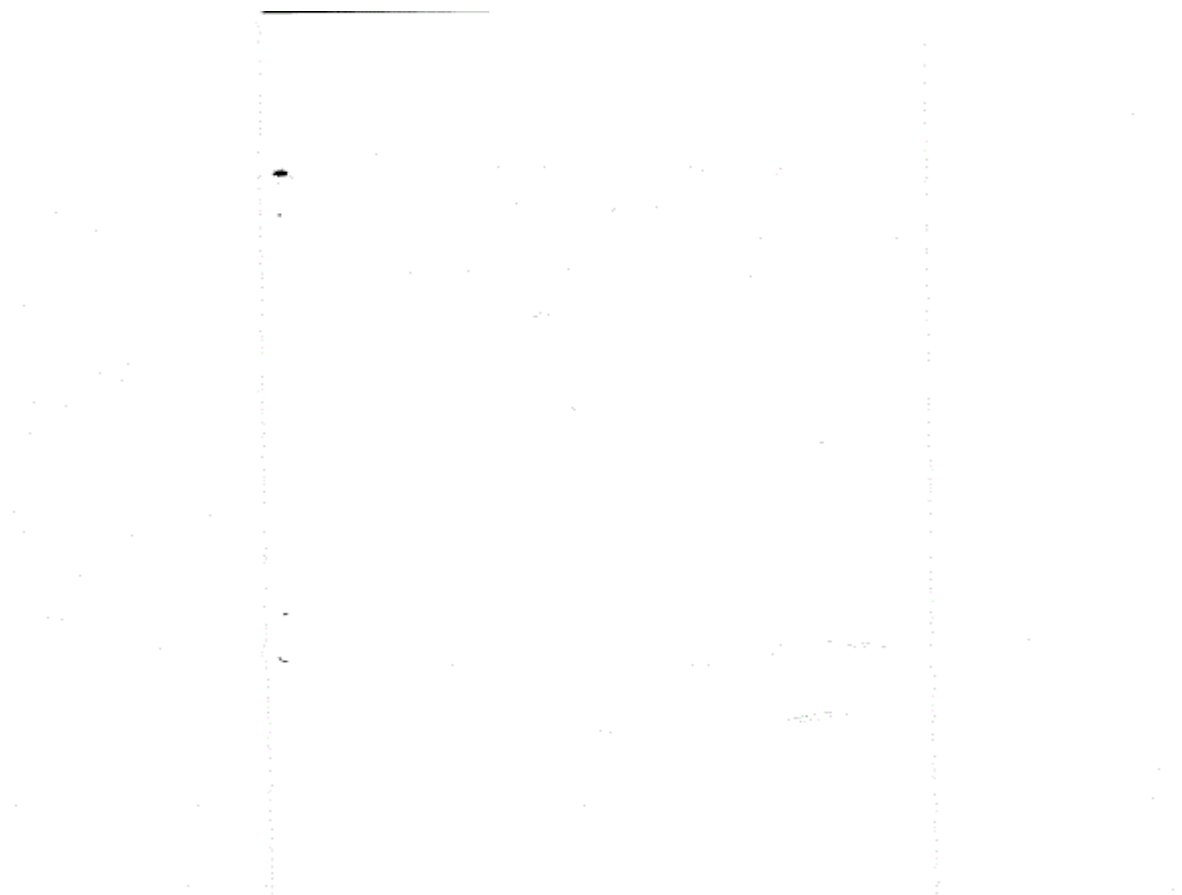
والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعله مقبولا نافعا . إنه ﷻ جميع قريب ، وهو نعم المولى ونعم النصير .  
\* وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب \*

دكتور

مصطفى مصطفى عطا

١٨ / ٣ / ١٩٩٨ م





## تمهيد

### البارودي وشعره

البارودي : (١)

هو محمود سامي " ياشا " بن حسن حسني عبد الله البارودي المصري . من أسرة جركسية تنتمي إلى حكام مصر المساليك . ولد في السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٥٥ هـ الموافق للسابع من أكتوبر من عام ١٨٣٩ م . وكان والده ( حسن حسني ) ضابطاً في الجيش المصري . وما زال يترقى حتى أصبح من أمراء المدفعية . ثم عين مديراً لمديرية دنقلة في السودان . وكانت أسرته تسكن مدينة إيتاي البارود في محافظة البحيرة ، ومن ثم لقب الشاعر بالبارودي.

١ - المراء في حياة البارودي وشعره : الأعلام للزركلي ١٧١/٧ .. والبارودي رائد الشعر الحديث للدكتور شوقي عفيف .. وكتاب : محمود سامي البارودي للدكتور عمر الدسوقي .. وكتاب : محمود سامي البارودي للدكتور عيسى الخديدي .. وكتاب : محمود سامي البارودي للدكتور محمد صبري .. وكتاب في الأدب العربي المعاصر - القسم الثاني للدكتور إبراهيم عواجن .. وكتاب : شعراء مصر وبيناتهم في الجبل الماضي لعباس العقاد .. وكتاب : في الأدب الحديث للدكتور ع.و. الدسوقي .. ومقدمة ديوان البارودي بقلم علي عبد القصود عبد الرحيم .. وغيرها من كتب الأدب في العصر الحديث .

- وكان الشاعر صغير السن وقت وفاة والده ؛ إذ كان في السابعة من عمره ، كما أشار هو إلى ذلك في وثائقه لوالده فقال : <sup>(١)</sup>

مضى وخلفني في من سابعي لا يهرب الخصم إبراقى وإرعادي

وحرم الشاعر بذلك حنان الأب ورعايته منذ المراحل الأولى من حياته . وقد كفلته أمه بعد وفاة أبيه وقامت على تربيته خير قيام ؛ فأحضرت له المعلمين الذين تلقى على أيديهم شيئا من القرآن الكريم ، والفقه الإسلامي ، والتاريخ ، والحساب ، والشعر . وفي عام ١٨٥٠ م التحق البارودي بالمدرسة الحربية ، وتخرج فيها في عام ١٨٥٤ م وهو في السادسة عشرة من عمره .

وفي عام ١٨٧٨ م رقي البارودي إلى رتبة لواء ، وعين مديرا للشرقية ، وسرعان ما نقل محافظا للقاهرة ، وفي العام التالي عين وزيرا للمعارف والأوقاف في وزارة محمد شريف . وفي سنة ١٨٨١ م ضمت إليه وزارة الحربية والبحرية ثم عزل عنها . وفي سنة ١٨٨٢ م ولّاه الخديوي توفيق رئاسة الوزراء ، وعهد إليه بتأليف مجلس النظار الجديد بعد استقالة محمد شريف من رئاسة الوزارة للمرة الثانية . وبعد مضايقات

١ - ديوان محمود سامي البارودي - شرح على عبد القصود عند الرحيم - ط دار الجيل - بيروت - ط ١ - ١٩٩٥ م - ص ١٥٥ .

كثيرة تعرض لها البارودي ووزارته من جانب الإنجليز والحدوي توفيق  
قدم البارودي استقالته من رئاسة الوزارة في مايو سنة ١٨٨٢م.

وبعد أن تم للإنجليز احتلال مصر في بولية من هذا العام حوكم  
البارودي وعراي ورفاقهما من قادة المقاومة الوطنية وحكم عليهما مع  
بعض القادة بالنفي المؤبد ، واختارهم الإنجليز جزيرة سرديب ،  
وصودرت آملاكهم ، وجردوا من جميع الرتب والألقاب . وفي صبيحة  
يوم ٢٨ من ديسمبر ١٨٨٢م حملتهم باخرة من السويس إلى سونديب .  
"ولتأع قلب البارودي لفراق الوطن ، وتظل ساعات وداعه ماثلة في  
خياله والدموع تنهمر من عينيه " .<sup>(١)</sup>

قضى البارودي في منفاه سبعة عشر عاما أشد خلالها الكثير من  
قضاياه الخالدة بينها شكواه ، ويعبر فيها عن حنينه للوطن ، ويصف فيها  
ما يراه في منفاه ، ويراسل الأدباء في مصر ، ويرثي من مات من أهله  
وأصدقائه ، ويتذكر شبابه وما آل إليه حاله .<sup>(٢)</sup>

وقد أوردته طول النفي العديد من العزل والأسقام ؛ فضعف سمعه

١ - البارودي رائد الشعر الحديث - د / شوقي ضيف - دار المعارف - ط ٣ -  
١٩٧٧ م - ص ٨٢ . وانظر كتاب : محمود سامي البارودي شاعر النهضة - د /  
علي الخديدي - ص ٢٦٣ وما بعدها .

٢ - في الأدب الحديث - د / عمر الدسوقي - دار الفكر العربي - ط ٧ - ١٩٨١ .

وبصره ، ووهن جسمه . وفي أواخر القرن التاسع عشر أصيب البارودي بمرض في عينيه كاد بسببه يفقد ما تبقى له من نور عينيه ، فقرر الأطباء في سرنديب وجوب عودته إلى وطنه لمعالجته في مصر بين أهله وبينته التي نشأ فيها . وفعلا عاد البارودي إلى وطنه في الثالث الأخير من عام ١٨٩٩ م . ورد عليه عباس حلمي - بعد ذلك - أملاكه المصادرة . غير أن بصره لم يعد إليه ففقدته نهائيا.<sup>(١)</sup>

وما كادت قدماه تلمس أرض مصر حتى أنشد قصيدته الرائعة: <sup>(٢)</sup>

أبابلُ رأى العين أم هذه مصرُ فإني أرى فيها عيونًا هي السحرُ

ولزم البارودي بيته بعد عودته من منفاه ، ولم يختلط بأحد غير أهله وأصدقائه المخلصين ، ومن كان يأنس بهم من الشعراء والكتاب . وذهب الشطر الأكبر من وقته لتفقيح ديوانه وقذييه وإعداده للطبع وترتيب مختاراته المشهورة حتى توفي - رحمه الله - في الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٠٤م<sup>(٣)</sup> ، أو في الثاني عشر من نفس الشهر كما يذكر الدكتور علي الحديدي.<sup>(٤)</sup>

١ - انظر : محمود سامي البارودي - شاعر النهضة ٣٢٦ .

٢ - ديوان البارودي ٢٦٧ .

٣ - انظر البارودي رائد الشعر الحديث - شوقي ضيف ص ٩٥ .

٤ - محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ٣٥٥ .

#### ثقافة البارودي :

تلقى البارودي دروسه الأولى في البيت حتى سن الثانية عشرة . ثم التحق بالمدرسة الحربية . وأثناء دراسته بها كان كثير القراءة والاطلاع على دواوين كبار الشعراء العرب في العصور الأدبية المختلفة . وكانت "قراءة كتب الأدب والتاريخ وحفظ الشعر المتنقي الجيد هي عماد ثقافته الأدبية . على أن البارودي قد اطلع على آداب أخرى غير الآداب العربية... فحينما ذهب إلى الأستانة وهو في شبابه والتحق بوزارة الخارجية عكف على دراسة التركية والفارسية ونظم الشعر بها كما كان ينظمه بالعربية . أحف إلى هذا ما روى من أنه تعلم الإنجليزية وهو في منفاه وترجم بعض آثارها . وهذه اللغات المتعددة لها أثرها - ولا ريب - في معانيه وأخيلته وتصويره للموت"<sup>(١)</sup>

هذا إلى جانب مصاحبته وجلساته لبعض من كان لهم دراية بالأدب واللغة من أمثال الشيخ حسين المرصفي ، والإمام محمد عبده ، وعبد الله فكري ، وغيرهم ؛ مما مكنه من صقل لسانه ، وجودة تصوره فينبه التراكيب العربية ، والبعد عن الأخطاء النحوية . كما يذكر الدكتور على الحديدي أن البارودي قرأ عددا من كتب اللغة مثل الأجرمية وشرحها ،

ومن البناء . والمقصود في الصرف ، والكفراوى وشرجه وغيرها من كتب النحو والصرف . مما كان له أثر في تقويم لغته .<sup>(١)</sup>

وقد ترك البارودى من الآثار الأدبية : ديوان شعره وهو آتسه الكبرى التى جمعت ما هتف به من شعر أعاد به إلى الشعر العربي رونقه ومباهه ، وأيقظه من سباته العميق . وقد طبع ديوان البارودى بعد موته موارا .

وبجانب شعر البارودى فى ديوانه طبع له فى عام ١٩٠٩م قصيدة طويلة تحت عنوان " كشف الغمة فى مدح سيد الأمة " وهى ملحمة شعرية فى مدح الرسول ﷺ تحدث فيها عن سيرة الرسول ﷺ من مولده إلى وفاته وعدد أبياتها ٤٤٧ بيتا وتقع فى ٤٨ صفحة . وقد نظمها وهو فى المنفى على وزن قصيدة " البردة " للبوصيرى .<sup>(٢)</sup>

كما ألف البارودى كتابا سماه " قيد الأرايد " وهو كتاب نثرى التزم فيه أسلوب السجع وراعى فيه الصناعة اليدعية ومحسناتها ، وجمع فيه بعض الحواطر الساخرة والرسائل التى كتبها خاصته<sup>(٣)</sup> . ويصور

١ - انظر محمود سامى البارودى شاعر النهضة - مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢ / ١٩٦٩م . ص ١١ .

٢ - انظر كتاب : محمود سامى البارودى شاعر النهضة - ص ٤٣٣ .

٣ - المرجع السابق ص ٤٣٤ .

الكتاب بعض الجوانب الخفية في حياة البارودي ، كما يعطينا صورة عن الأحداث والظروف التي مرت به . ولم ينشر هذا الكتاب حتى الآن ولا يدري أحد أين مستقره . وقد أورد الأستاذان علي الجارم ومحمد شقيق معروف في مطلع تحقيقهما لديوان البارودي صورة للفصل من هذا الكتاب.<sup>(١)</sup>

كما كتب البارودي مختاراته الشعرية التي انتخب فيها أشعارا من ثلاثين ديوانا لثلاثين شاعرا من شعراء الأدب العربي في العصور السابقة . بدأهم ببشار بن برد الشاعر العباسي ( ت ١٦٨ هـ ) وانتهى بشرف الدين أبي العباس بن عتير ( ت ٦٣٠ هـ ) واختار البارودي من هذه الدواوين ما رقى لفظه ، ودق معناه ، وحلا من الحشو والتعقيد . وقد بدأ البارودي انتقاء هذه المختارات في عام ١٩٠٣ م ورتب فيه الشعراء على حسب أزمنتهم لا على حسب مكانتهم الفنية .<sup>(٢)</sup>

#### شعر البارودي :

أنشد البارودي الشعر في سن مبكرة . وكان ذلك نتيجة حبه للأدب ولغته وكثرة الاطلاع على كتبه ؛ إذ كان في مدة دراسته بالمدرسة

١ - انظر كتاب : محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ٤٣٥ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ٤٤٠ وما بعدها .



الحرية مغرماً بالعكوف على مصادر الشعر العربي القديم . وكان حبه للشعر القديم يزداد ويعظم بمرور الوقت . فكان يعاشر شعراء العرب القدماء من خلال دواوينهم يقرأهم وينظم على منوالهم . وبدأ بعد تخرجه يهتم بشعره ، وكان أكثر ما يستهويه ويستولى على لبه أشعار الحماسة والبطولة والقوة ، وشعر الحكمة لتمثلها وأصبحت جزءاً من نوازغ نفسه .

ومن المترف به أن البارودي هو رائد الشعر العربي في العصر الحديث ، وأول ناهض به من كيوته في عصرنا - كما يقول الزركلي<sup>(١)</sup> وجاء شعره متمسكاً بالسماط التي اتسم بها الشعر العربي في العصور الأدبية الزاهرة . كما تأثر فيه بكبار الشعراء العرب الذين حفظ ووعى كثيراً من أشعارهم فجاء شعره متمسكاً بقوة الأسلوب ، وروعة التصوير ، والدقة في اختيار الألفاظ ، والنقاء العبارات ، والبعد عن التعقيد والألفاظ الغامضة . كما استطاع أن يباعد بين شعره وبين الحسنات البديعية المشككة ، ولذا استحق أن يوصف بزعامته للشعر العربي في العصر الحديث .

وقد نظم البارودي الشعر في جميع الموضوعات التي نظم فيها

١ - الأعلام - دار العلم للملايين - ط ٥ - ١٩٨٠ - ٧ / ١٧١ .

الشعراء العرب في العصور السابقة ؛ فوجدنا في شعره الكثير من قصائد المدح ، والمجاء ، والوصف ، والرثاء ، والفخر ، والعتاب .. وغيرها من موضوعات الشعر التي كانت مألوفة عند الشعراء العرب . وقد حاكى البارودي القدماء في أسلوبهم ، وأتى بكثير من الصور العربية في نظمته على كل غرض من هذه الأغراض . فقد وقف على الأطلال والدمى والآثار ، وأتى في ذلك بشعر جاهلي الروح والمعن والشكل والأسلوب ، من مثل قوله :<sup>(١)</sup>

فيا ليت أن العهود باق وأننا	دوارج في غفل من العيش غامل
نمر بنا رعيان كل قبيلة	فما بمنحونا غير نظيرة غافل
صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهباً	بعيداً ولم يسمع لنا بطوال
نسر إذا ما القوم ساروا غديسة	إلى كسل همم والعتات وجمال

ويأتي ذلك عقب قوله في مقدمة القصيدة نفسها :

ألا حي من " أسماء " رسم المنازل	وإن هي لم ترجع بيانا لسانل
علاء تعفنها الروامس والتفت	عليها أحاضيب العيوس الجوافل
فلأما عرفت الدار بعد ترسم	أراين بها ما كان بسالامس شاغلي
عدت وهي مرعى للظباء وطالسا	غنت وهي مأوى للحسان العفائل
قللعين منها بعد تزيال أهلها	معارف أطلال كوحسى الرسانل

١ - ديوان البارودي - شرح على عبد القصور عبد الرحيم - ص ٤٢٨ .

ونراه في الغزل ووصف المرأة يأتي بالعديد من التشبيهات والأوصاف القديمة المحفوظة ، من مثل قوله : <sup>(١)</sup>  
 تبع المسوى قلبي فسيما وليته      قبل التوغل في البلاد تبعنا  
 أنقسه في شرك الخبيثة غداة      هيهات ليس بصاحبي إن أفلنا  
 كالورد حذا ، والنفسح طرة      والعصن قدا ، والغزاة ملقنا  
 وقوله : <sup>(٢)</sup>

عصن بان قد أطلع الحسن فيه      بيد السحر جئنا ووردا  
 ما هلال السماء؟ ما الظي؟ ما البر      دجينا؟ ما العصن إذ يسهدي؟  
 هو أهي وجهها ، وأقبل ألحا      عا ، وأندى حدا ، وألن قدا

بل ونقرأ في غزله كثيرا من الأوصاف المادية التي كان يرددها القدماء في أشعارهم في المرأة . فنقرأ له مثل قوله : <sup>(٣)</sup>

عوطية القد لو مر الحمام بها      لم يشته أفا من أبكه السزجت  
 خفت معاطفها لكن روادفها      بمثل ما جلتي في المسوى وججت  
 وبلاء من لحظها الفتاك إن نظرت      وآه من قدها العسال إن مسحت  
 أنال من نغرها الدري ما سالت      نفسي ومن عدها الوردى ما اقترحت

١ - ديوان البارودي ٨٣ -

٢ - ديوان البارودي ١٧٥ -

٣ - ديوان البارودي ٩٨ -

وقوله :<sup>(١)</sup>

والوعة القلب من غزلانٍ أخبيرة تكاد تسكر من أحداقها السراح  
من كل مائة كالغصن قد جمعت بدالعا كلها للحمين أوصاح  
فالعين ترجسة ، والشعر سوسنة والنهد رمانة ، والحند تفاح

وتراه في فخره يتكىء على مقومات الفخر القديم ، ويردد فيه ما كان يردده الشاعر العربي القديم في هذا المقام فنقرأ له قوله في الفخر

بقومه :<sup>(٢)</sup>

لهم عند مرفوعة ومعافل وألوية حمر وأفنية عضر  
ونارغا في كل شرق ومغرب لدرع الظلماء السنة حمر  
وخيل يعم الخافقين صهيلها ترائع معقود بأعراقها النصر  
معسودة قطع القيساق كأنفسا خدارية فتشاء ليس لها وكبر

وفي وصفه للخمر وحديثه عنها يستعر الكثير من أوصاف القدماء

وحديثهم عنها فنقرأ له مثل قوله :<sup>(٣)</sup>

أدر الكأس بما نديم وهبات واسقنيها على جبين العداة  
أى شيء أشهى إلى النفس من كأس من مدار على بساط نيمات

١ - ديوان البارودي ١٠٣

٢ - ديوان البارودي ٢١٦

٣ - ديوان البارودي ٨٠

وقوله :

زمزمى الكأس وهاتى      واستقيها بما مهاتى  
وامزجيسها بوطيباب      منك معسول النسيب  
إنما الروح مدار الـ      أنس في كل الخبثات  
طالما عاصيت فيها      أهل ودى وهاتى  
لا أبالي في هواها      بسماع الترهات

وقوله في وصف تأثير الخمر في شاربها : (١)

إذا ما شربناها أقمتا مكاننا      وظلت بنا الأرض الفضاء تدور  
وهكذا في بقية أغراضه الشعرية القديمة .

ولكن البارودى إذا كان قد قلّد القدماء وحاكاهم في أغراضهم  
وفى أسلوبهم وطريقة عرضهم لمثل هذه الأغراض ، واقتبس كثيرا من  
معانيهم وصورهم ، فإن له مع ذلك الكثير من التجديدات في شعره ؛  
فقد أدخل على شعره كثيرا من مظاهر التجديد في الألفاظ والتعبير ، وفي  
المعاني والصور الفنية ، وكان في ذلك معبرا عن شعوره وأحاسيسه  
ومصورا لمشاهداته ومرئياته . كما أنه قد جاء بالكثير من الصور السق لم  
يسبق إليها والى لى بما ما يستوجبه عليه عصره الذى يعيش فيه ، ويتنه  
وما يراه فيها .

ففى وصفه للطبيعة - مثلا - نجده يصف مناظر الريف المصرى ،  
ويصورها تصويرا بديعا يعبر عن حساسية غريبة وإحساس مرفف ، ويعبر  
عن شغف بالطبيعة وحب لها . فنقرأ له فى هذا الباب أشعارا فى وصف  
حقول القطن ، وفى وصف السفن فى بحر النيل ، ووصف الساقية  
والمزروعات والطيور وحركاتها وهى تحوم على صفحة النهر . وفى وصف  
النحلة وهى تنهذى من زهرة إلى زهرة .. إلى غير ذلك مما تمتلئ به  
طبيعة الريف المصرى .

اقرأ له - مثلا - فى وصف القطن :<sup>(١)</sup>

والقطنُ بينَ ملبَّوزٍ ومُلبَّورٍ	كالتعادةِ إزدانَتْ بأنواعِ الخَلْسِ
فكأنَّ عاقدهَ كراتٍ زمرَدٍ	وكانَ زاهره كواكبٍ فى السُّرُورِ
دبت به روحُ الحياةِ فلبَّوْهُنَّ	عنه القيودُ من الجداولِ قد مَسَى
فأصولُه الدكناءُ تسبحُ فى السُّرَى	وفروعُه الخضراءُ تلعبُ فى المَوَا

كما وصف البارودى كثيرا من مظاهر الحياة فى عصره كقوليه فى

وصف القطار :<sup>(٢)</sup>

ولقد علوتُ سُرَّةَ أدهمٍ لو جرى	فى شأره برقٌ تعثر أو كَبَا
يطوى المدى طي السجلِ ويهتدى	فى كلِّ مهمةٍ يضلُّ بها القَطَا

١ - ديوان البارودى ٤٦ .

٢ - ديوان البارودى ٤٠ .

يجرى على عجل فلا يشكو الوجس مدّ النهار ولا يحمل من السرى  
لا الوحد منه ولا الرسم ولا يسرى يمشى العرضة أو يسير الهيدى  
ريّان ملء ضلوعه لكنه يشكو بفرسه غيباً في الحشا

وله في الشعر السياسي الكثير من الأشعار الجديدة في بابها والتي عبر  
بها عن كثير من المعاني الوطنية والنظم السياسية . من مثل قوله عن نظام  
الشورى أثناء مدحه للخديوى توفيق :<sup>(١)</sup>

من المشورة وهى أكبرم عطية يجرى عليها كل راع مرشد  
هى عصمة الدين التى أوحى بها رب العباد إلى النسي محمد  
فمن استعان بها تأيد ملكه ومن استهان بأمرها لم يوشد  
أمران ما اجتماعاً لقائد أمية إلا جنى فيما تشار السؤدد  
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى وجند للعدو يحرص  
هيات يحيا الملك دون مشورة ويعزّز ركن الشهد ما لم يعمد

وفى شعر الهجاء نجد البارودى نوعاً من الهجاء الاجتماعى يسير فيه  
على غير عادة الشعراء فهو فيه يشكو ظلم الناس ونفاقهم وغدرهم ،  
ويصور عيوب القوم في المجتمع ، ويحثهم على إصلاح تلك العيوب . ومن  
ذلك قوله يذم زمانه وينعى على معاصريه تلويحاً وعدم فاتهم في تعاملهم  
مع بعضهم :<sup>(٢)</sup>

١ - ديوان البارودى ١١٠ .

٢ - ديوان البارودى ٣٩ .

أنسا في زمان غادر ومعاشير يتلوثون تلوث الحريماء  
أعداء غيب ليس يسلم صاحبه منهم وأغصوة محض ورجاء  
أفح بهم قوماً يلبث إخوانهم فلبثت أقيح ذممة وإعسار  
قد أصبحوا للدهر سبة نساقم في كل مصدر محنة وبلاء  
وأشد ما يلقى الفسق في دهره فقد الكرام وصحبة اللوماء

إلى غير ذلك مما تجده في شعره من معان جديدة ، وصور غير  
مألوفة ، ومضامين لم تعدها في الشعر العربي القديم ، وأساليب تعبر عن  
شخصية البارودي دون سواه ، مما يدل على أن ميله إلى القديم وتقليده في  
شعره لم يكن عن اقتناع منه أن ذلك هو الأسلوب الأمثل ، والواجب  
اتباعه ، أو أنه النهج الوحيد الذي عليه أن يسلكه في شعره ، ولكن ذلك  
كان من باب امتحان شاعريته واختيار مقدرة القنية ؛ فأراد أن يثبت  
لنفسه أن في استطاعته أن يهاكي القدماء في أشعارهم ، وفيما تحويه من  
مقومات ومضامين . فإذا ما أثبت لنفسه ذلك اطمأن إلى شاعريته ،  
وانطلق - وهو مطمئن - بخوض غمار هذا الميدان ، ويعبر عن كل ما  
يدور حوله ، ويمتلى به زمانه .

فالنقل في شعر البارودي لم يكن " إلا مظهراً من مظاهر التجديد ؛  
فقد كان في تقليده لشعر العباسيين وأسلافهم لائراً على منهج معاصرته  
ومن سيقهم ممن التزموا بالسبيل على منوال الشعراء المملوكيين



والعثمانيين<sup>(١)</sup>

فإن كان البارودي قد عرف بتقليده ومعارضته لشعراء العربية الكبار في العصور الأدبية الأولى - وخاصة شعراء العصر العباسي - فإنه قد أمدنا بشعر كثير وحسنت فيه لمسات البارودي العصرية التي تتم عن اتصاله إلى العصر الذي يعيش فيه ، وبمرونا بتلك الأحاسيس التي يتأثر بها كل من يقرأ شعره الوجداني . حتى ليجد القارئ في شعره الذي يعارض به شعر غيره شيئا غير مجرد التقليد . وجاء تفوق البارودي في محاكاة هذا النمط العالي من الشعر القديم بمثابة الأمل الذي يعيد إلى أبناء عصره تقنيهم في مواهبهم المعاصرة وفي أنفسهم ، ويثبت أن الزمن ما زال في إمكانه أن يمد الأدب العربي بالشعر الرفيع الذي يماثل أقسوى النماذج الشعرية التي ظهرت فيه في العصور السابقة.

ومن ناحية أخرى فقد برز في شعر البارودي عنصر الذاتية بجانب نظراته المتميزة للحياة والناس واتصاله بوجودان يقطر يرصد به المجتمع والطبيعة والناس .

وهكذا اجتمع لشعر البارودي كل المقومات التي أمدته بأسلوب إن

١ - في الأدب العربي المعاصر - القسم الثاني - د / إبراهيم عرجين - مطبعة السعادة - الطبعة الأولى - ١٩٧٦ م ١٤٣ .

يكن قديماً في شكله وبعض خصائصه إلا أنه جديد بالنسبة لعصره ،  
متفوق بالنسبة لعصور التخلف التي مر بها الشعر العربي قبله .<sup>(١)</sup> يقول  
الدكتور عبد القادر القط في هذا الجانب من شعر البارودي <sup>(٢)</sup> : " وإذا  
كانت ضرورة النظر إلى التراث قد دفعت الشاعر إلى أن يبنى قصيدته  
على غط القصيدة الطويلة بأقسامها التقليدية المعروفة فإن إلحاح الخنة على  
وجدان البارودي كان يتسلل إلى مطالع القصيدة فيشيع فيها معاني  
وصوراً قد تبدو في ظاهرها منسقة مع المطلع العاطفي . لكنها إذا أفردت  
وانتزعت من سياقها بدت تعبيراً صريحاً عن تلك الخنة <sup>٩</sup> .

قليل تقليد البارودي للشعراء العرب في العصور الأدبية السابقة  
شيئاً يقلل من القيمة الفنية العظيمة التي يتسم بها شعره . بل إن ما قام به  
البارودي من محاكاته هؤلاء الشعراء ومعارضته لهم بعد مسن حسنة  
البارودي وأفضاله على الشعر العربي كما يقول العقاد ، وكما يفهم من  
النص التالي له : <sup>(٣)</sup>

١ - من مقال الرثاء في شعر البارودي للمؤلف - العدد الثاني من مجلة كلية الدراسات  
الإسلامية والعربية للبيات بالصوره ص ٢٢١ بعض التصرف .  
٢ - الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر - مكتبة الشباب بالقاهرة - ١٩٨٦ م  
ص ٣٠ .  
٣ - شعراء مصر وبناتهم في الجيل الماضي - دار تحفة مصر - القاهرة - القصيدة - ص  
١٤١ .

" وربما كانت محاكاة البارودي للأقدمين هي أنفع مما في شعره للأدب المصري الحديث لأنه رد إلى المعاصرين القدرة على مجازاة العباسيين والمختصرين والجاهليين في ميدان اللغة والتركيب بما أتقن من معارضتهم في المذاهب والأساليب. وليس أدعى من هذه الثقة إلى الابتكار والاستقلال والاعتماد على النفس والإفلات من قيود التقليد. فإذا حسينا البارودي سليفته المستقلة وشخصيته المعبرة ونزعته إلى الاعتراف بحق العصر على الشاعر فلا تنسى أن نحسب له جودة التقليد وما استتبعه من حسن الثقة وعزيمة النهضة "

ويقول العقاد في موضع آخر :<sup>(١)</sup>

" وله - على هذا - ميزة واضحة لا نظير لها في تاريخ الأدب المصري الحديث ؛ وتلك أنه قد وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمثانة . وأوشك أن يرتفع هذا الارتفاع بلا تدرج ولا تمهيد وكأنه القصة الشاهقة تنبست في مسون الطود عما قبلها فينقطع بينها وبينه الوصول إلا أن تستدير لها من القمم التي تليها وتقرب منها " . ثم يقول العقاد<sup>(٢)</sup> : " وهذه وثبة قديرة في تاريخ الأدب المصري ترفع الرجل بحق إلى مقام الطليعة أو مقام الإمام "

١ - المرجع السابق ص ١١٠ ، ١١١

٢ - المرجع السابق ص ١١١

ويقول الزركلى عن شعره<sup>(١)</sup> : " أما شعره فيصح اقتضاه فاتحة  
للأسلوب العصرى الراقى بعد إسفاف النظم زمنا غير قصير".

ومن هذه النصوص كلها نتعرف على قدر شخصية البارودى  
الشاعر وعلى مكانة شعره فى الأدب العربى . فالبارودى - كما يقول  
الدكتور على الخديدى -<sup>(٢)</sup> " لم يتعلم العروض والقوافى ليقول الشعر  
شأن معاصريه ، وإنما تغنى لأن موهبته الشعرية فرضت عليه التعبير عن  
العواطف والأحاسيس التى تلوح فى نفسه ، ولأن الشعر فى سلكته ...  
فجاء بأنغام فى الشعر لم يألّفها أهل زمانه ، وسما به إلى مكان الفحول من  
الشعراء الأولين فى الجاهلية والعصور الأولى من الإسلام . وكان النسبى  
الذى يعتنه العناية الإلهية لينفخ فى الشعر العربى روحا تنشره من الضعف  
الذى انطوى عليه القرون الطوال وتبعته من جديد " .

وهكذا جاء شعر البارودى فى نهاية الأمر ممثلا لشخصية صاحبه ،  
ومصورا عواجا نفسه ، ومعبرا عن أحاسيسه ، وراسما أصدق صورة لواقع  
الاجتماع الذى عاش فيه ، وما كان يحدث فيه من وقائع وأحداث.

١ - الأعلام ٧ / ١٧٦ .

٢ - محمود سامى البارودى شاعر النهضة ص ٧٥ .



## الفصل الأول

### مفهوم الزهد وتاريخه في الأدب العربي

#### مفهوم الزهد :

الزهد في اللغة : ضد الرغبة والحرص على الدنيا . والزهد في الشيء وعن الشيء : خلاف الترغيب فيه . وزهد في الأمر : رغب فيه . وفي قوله - تعالى - : " وكانوا فيه من الزاهدين " <sup>(١)</sup> ، قال ثعلب : اشعروه على زهد فيه . <sup>(٢)</sup> وفي حديث الزهري وقد مثل عن الزهد في الدنيا فقال : " هو ألا يغلب الحلال شكره ، ولا الحرام صبره . أراد ألا يعجز ويقصر شكره على ما رزقه الله من الحلال ، ولا صبره عن ترك الحرام ؟

وفي الاصطلاح : الكف عن المعصية وعما زاد عن الحاجة وترك ما يشغل عن الله ، ثم الكف عن أمور الدنيا جميعا بتخليه القلب والتقصيف التام وترك كل ما هو مخلوق . <sup>(٣)</sup>

" والزهد في الدنيا في المعتقد الإسلامي لم يكن المقصود به كراهية

١ - من الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف .

٢ - لسان العرب - طبعة دار المعارف - مادة ( زهد ) .

٣ - دائرة المعارف الإسلامية - ترجمة أحمد الشافعي وحافظ جلال ١٠ / ٤٥١ .

الدنيا وعدم الالتفات إليها . وإنما كان المقصود به عدم حب الدنيا والتسلك بها . ولفرق كبير بين المزلتين : فالكراهية تدعو إلى التيسار والدفع والتفوق . وعدم الحب ليس فيه أكثر من عدم الاهتمام وعدم الالتفات والترقب والتطلع .<sup>(١)</sup>

وقد وردت في كتب التراث العربي والإسلامي أقوال كثيرة في توضيح مفهوم الزهد في الدنيا تؤكد كلها المعنى السابق وتقويه ، وتبين حقيقة النظرة الإسلامية إلى الزهد . ومن ذلك ما ورد في كتاب العقائد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي من أقوال عديدة في معنى الزهد والمراد به . وهذه أحدها :<sup>(٢)</sup>

- العنى برفعه قال : قيل لرسول الله ﷺ : - ما الزهد في الدنيا ؟ قال : أما إنه ما هو بتحريم الحلال ولا إضاعة المال . ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أغنى منك عما في يدك .

- وقيل للزهري : ما الزهد ؟ قال : أما إنه ليس بتشعيت اللمة ولا قشف الغيبة ، ولكنه صرف النفس عن الشهوة .

١ - شعر الزهد في القرنين الثامن والتاسع للهجرة - د / علي نجيب عطوى / المكتب الإسلامي بيروت - ط ١ / ١٩٨١ م ص ١٣٠ .  
٢ - العقد الفريد - ابن عبد ربه - تحقيق : محمد سعيد العربيان - ط دار الفكر - بدون تاريخ ١٠٥/٣ - ١٠٦ .

وقيل لآخر : ما الزهد في الدنيا ؟ قال ألا يغلب الحرام صيرك ولا  
الخلال شكرك .

- وقيل لرسول الله ﷺ : يا رسول الله : من أزهّد الناس في الدنيا ؟  
قال : من لم ينس المقابر والبلى ، وآثر ما يبقى على ما يفتى ، وعد نفسه  
مع الموتى .

- وقيل لعمد بن واسع : من أزهّد الناس في الدنيا ؟ قال : من لم  
يطلب المفقود حتى يفقد الموجود .

- وقال النبي ﷺ : - الزهد في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة ،  
والرغبة في الدنيا مفتاح الزهد في الآخرة .

وقال ابن السماك : الزاهد الذي إن أصاب الدنيا لم يفسح ، وإن  
أصابته الدنيا لم يحزن . يضحك في الملاء ويكي في الخلا .

- وقال الفضيل : أصل الزهد في الدنيا الرضا عن الله تعالى .

وهذه الأقوال كلها تؤدي إلى مفهوم واحد للزهد . وهو عدم  
الرغبة في الدنيا وعدم الإقبال عليها أو التعلق الشديد بها وبمتاعها وترقب  
زوالها ، وعدم الاطمئنان إليها ، والصبر على ما يصيب الإنسان فيها من  
مكروه . والاشتغال بأمور الآخرة وبما ينفع الإنسان فيها وينجيّه من



عذاب يوم القيامة . " فالزهد في نظر الإسلام هو أسلوب من الحياة يحياها المؤمن ، وموقف خاص من الدنيا وزخرفها وشهواتها ولذاتها ومن النفس ومطامعها ، وأخذ الإنسان نفسه بالجاهدات الروحية والبدنية . وهو بهذا المعنى إسلامي حث عليه الدين وأخذ به النبي وأصحابه " (١) .

فالزهد في الحقيقة غلط سلوكي إنساني يؤدي إليه التكوين النفسي لبعض الأفراد من جهة ، وتساعد عليه الظروف الاجتماعية من جهة أخرى ؛ فالناس في كل زمان ومكان - يحكم تكوينهم النفسي - منهم الانبساطي المنفتح للحياة ، المقبل عليها في فم ، ومنهم الانقباضي العازف عن الحياة المعرض عنها الزاهد فيها . وكما يكون الخوف من الموت ومصير الإنسان بعد هذه الحياة دافعا لبعض الناس في بعض الأحيان إلى الإسراف في الانغماس في الحياة والاشتغال بملذاتها فإنه يكون كذلك لدى بعضهم داعيا إلى الزهد في الحياة والانصراف عن متعتها ولذاتها . (٢)

أما عن مفهوم الزهد في الاصطلاح الأدبي فيبقى تناول الأديب في أدبه ما يدل على المعاني السابقة فشعر الزهد هو ذلك الشعر الذي يركز فيه الشاعر حديثه على الإنسان ودوره في الحياة وموقفه منها وما فيها من

١ - شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة ص ٢٩ .

٢ - النظر : في الشعر العباسي الرواية والفن - د / عز الدين إسماعيل - المكتبة الأكاديمية ١٩٩٤ م - ص ٢٧٦ .

متاع . " وهل يجب عليه أن يقف من هذه الحياة موقف الساهر العسايت  
اللاهي الذي ليس له هم إلا المتعة ؟ أم أن له رسالة ينبغي ألا يتخلى عنها؟  
وأن هذه الرسالة هي على درجة كبيرة من الإنسانية ؛ لأنها تطلب منه أن  
يشارك الآخرين في كل قضاياهم القائمة أو الطارئة . فهو ما خلق في هذه  
الدنيا عبثا ، بل خلق ليقضى ما طلب منه ثم يرحل عنها . ومن هنا كان  
حديثهم يطول عن الموت والآخرة والعذاب وذم الحياة والزهد فيها . إلى  
غير ذلك من الأفكار الجديدة " (١)

#### الفرق بين الزهد والتصوف :

يخلط كثير من الناس بين الزهد والتصوف ، حتى إن بعضهم يفهم  
من التصوف بأنه هو الزهد ، ولا يفهم من كلمة ( الصوفي ) إلا أنه هو  
الزاهد في الدنيا ، مع أن الفرق كبير بين الزهد والتصوف . وقد تحدث  
الدكتور عزيز فهمي عن الفرق بين الزهد والتصوف ، وأوضح أن الفرق  
بينهما يكمن في وجود فرق بينهما في الغاية ، وفي الفكرة ، بجانب بعض  
الفرق العامة .

فالزهد يتطلب من الزاهد الانصراف عن الدنيا وملذاتها وإنكار  
النفس وشهواتها وتحمل مرارة الجوع والعطش طمعا في الآخرة وجنسا

النعم . أما التصوف فهو أن يقف الصوفي في حاضره فناء ، وأن يكون هدفه معرفة الله والاتصال به .

أما في الفكرة : فالزاهد يحوط بجلال الله وجبروته وعقابه وبطشه ، والصوفي ناعم البال في رحمة الله ولطفه وكرمه ، وفوق كل شيء محبته .

أما عن الفرق العام بين الزهد والتصوف فالزهد عام في جميع الأقطار ، وفي كل دين وجيل . أما التصوف ففرعة إسلامية خاصة ولقداسة عوامل شتى في ظروف خاصة تحت راية الإسلام.<sup>(١)</sup>

ومعنى هذا أن الزهد ليس مقصوراً على الإسلام والمسلمين ، وإنما هي ظاهرة عامة في كل دين ، ولدى أتباع جميع الديانات. ويؤيد هذا ما ذكره الدكتور يوسف خليف من ظهور موجة من الزهد الماتوي بجانب الزهد الإسلامي في العصر العباسي دعت إليه جماعات من زنادقة هذا العصر الذين اعتنقوا الماتوية . " وقد ظهر من بين هؤلاء الزهاد الماتويين شعراء عبروا عن مذهبهم في الحياة ورفضهم لها والنصرانهم عن مناعتها الرائل . على نحو ما نرى عند صالح بن عبد القدوس الذي قتل لماتويته من أشعار تفيض بهذا الزهد الغريب على الإسلام . وهو زهد جدت

١ - انظر : المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول - تحقيق فهدى القلبي - دار المعارف - ص ٢٣٤ .

الدولة في محاربتهم ومحاربة أصحابه ، وراحت تطارده وتطاردهم مطاردة شديدة <sup>(١)</sup> .

ونتيجة للخلط بين الزهد والتصوف وجد هناك من يخلط بين الزاهد والصوفي والعابد . وقد تحدث ابن سينا عن الفرق بين هؤلاء وهدف كل منهم من عبادة الله - عز وجل - فيرى أن المعرض عن متاع الدنيا وطبائفا يخص باسم ( الزاهد ) . أما المواطن علي فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما فيخص باسم ( العابد ) . وأما المتصرف بفقركه إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق في مسره فيعرف باسم ( العارف ) وهو المعنى بالصوفي عند ابن سينا <sup>(٢)</sup> .

أما عن هدف الصوفي والزاهد : فالزاهد إنما يهدف مسن زهده الاستمتاع في الآخرة . فزهده نوع من المعاملة ، كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة . أما الصوفي فإنه يزهد في الدنيا لأنه يتوهم عن أن يشغله شيء عن الله والاتصال به . وعبادة غير الصوفي هدفها دخوله الجنة كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة . أما عبادة الصوفي فإنها استدامة لصلته بالله - تعالى - إنه يعبد الله لأنه يستحق العبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه

١ - في الشعر العباسي نحو منيع جديد - د / يوسف خليف - مكتب غرب - ص ٣٠ .

٢ - قضية التصوف المفقود من الضلال - د / عبد الحليم محمود - دار المعارف - ص ٢٤٠ بعض التصرف .

لا لرغبة أو رغبة .

ونخلص من هذا إلى أن التصوف يعتبر مرحلة تالية لمرحلة الزهد .  
فقد ظهر الزهد أولاً ، ثم تطور مفهومه في القرن الثاني الهجري من زهد  
قائم على الخوف والرهبة من الوقوع في الخطيئة والمعاصي واتباع  
الشهوات ، إلى القول في الحب الإلهي والشوق إلى لقاء الله وإيقار ما عنده  
على ما حول الزاهد في الدنيا . " وبعد أن كان هذا الزاهد يتجه إلى الله  
- سبحانه وتعالى - خوفاً ورهبة من ناره عتده بعد ذلك يتجه إلى الله  
- عز وجل - حبا في ذاته ، وعشقا لصفاته لا طمعا في جنته . أى أن  
هذا الحب اتجه إلى ذات الله لأنه - عز وجل - أحق بهذا الحب . فلم  
يعد الله معبوداً فقط ، بل أصبح المعبود المحبوب .

ففي القرن الثاني الهجري إذن كانت بداية نشأة التصوف وتطوره  
الأول . وقد أصبحت كلمة ( صوفي ) تطلق على العابد الزاهد اللابس  
للتصوف . حتى إذا جاء القرن الثالث وجدنا أن التصوف أصبح علماً  
للفنس والأعلاق فالغناء في وجود النفس والاتحاد بالخالق (١) .

فظاهرة التصوف إذن سارت في إطار التدين أول الأمر ، ثم واكبت  
تيار الزهد ، ثم تطورت إلى أن أصبحت لهجاً روحياً له أصوله وأسس

وخصائصه التي جعلته مستقلا عن الزهد . وظهر فيه أعلام كبار عرفوا  
بتصوفهم واشتهروا به .

#### الزهد ودوافعه في الأدب العربي :

لم يكن تيار الزهد من ابتداء العصر العباسي كما يعتقد البعض .  
وإنما هو تيار يرجع إلى ما قبل ذلك بكثير . إذ يمكننا أن نرجع بأصول  
الزهد إلى عهد الرسول ﷺ والنمساها في بعض آيات القرآن الكريم ،  
وبعض الآثار من حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم .

فنحن نجد الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومناعبها الزائل تتردد في  
القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف . فالمسلم الحق في نظر الإسلام  
هو من عاش للأخرة ورفض عرض الدنيا والانغماس فيها ، ولم يأخذ منها  
إلا بحظ محدود يقيم به أوده ويكفيه من الكفاف في سبيل الله .

والزاهد الأول في الإسلام هو رسول الله محمد ﷺ والذي ضرب  
للمسلم أروع المثل في الخدم من الإقبال على الدنيا والانغماس في طوابعها  
ومناعبها ، وحث المسلم في الكثير من أقواله على الإعراض عن الدنيا  
وعدم التعرض لها . " وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحسون حياة  
زاهدة متشقة . وعلى رأسهم أهل الصفة وهم نفر من فقراء المسلمين  
اتخذوا صفة المسجد منزلا لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمؤمنين ،

يعبدون الله حق عبادته مرتلين آى الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثيرون  
أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه . وعلى رأسهم أبو بكر ، وعليّ ،  
وعمر ، وعبد الله بن عمر ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر ، وعبد الله بن عمرو  
ابن العاص وكان يقطع النهار صائما والليل قائما يصلى لربه <sup>(١)</sup> .

وكثر الزهاد في عهد الخلفاء الراشدين وفي العصر الأموي بعد أن  
أخذ كثير من المسلمين آنذاك يعيشون حياتهم للنسك والعبادة . وكان  
إقليم العراق يضم أكبر عدد من هؤلاء التائب والقراء والعباد . " وربما  
كان لكثرة الحروب فيه أثر في ذلك . وكان قوماً انصرفوا عن الفس  
خشية على أنفسهم من التورط في الإثم إلى النسك في العبادة . كما  
انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين  
فتركوهم وديارهم ، ومضوا يتعبدون ...

لذلك كله عمت في العراق موجة واسعة من التقوى والزهد في  
الدنيا وتعميها المادى <sup>(٢)</sup> .

ومع انتشار موجة الزهد والعبادة في العصر الأموي وجدت طائفة  
كبيرة من الوعاظ في هذا العصر . وهم جماعة عاشوا حياتهم لوعظ الناس

١ - العصر الإسلامي - د / شوقي صيف - دار المعارف - ط ٨ - ص ٣٧٠ .

٢ - المرجع السابق ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

وإرشادهم ودعوتهم إلى النسك والعبادة وعدم الإقبال على الدنيا .  
وتذكيرهم بالموت وما بعده من البعث والحساب والجنة والنار يوم القيامة .  
ويأتي الحسن البصري في مقدمة هؤلاء الوعاظ الذين كانت لمواعظهم  
الأثر العميق في نفوس بعض الشعراء الأمويين الذين كانوا يحضرون  
مجالسهم وأخذوا يعبرون عن تأثرهم بهذه المواعظ في شعر ديني تحول عند  
بعضهم إلى مواعظ دينية خالصة . على نحو ما نرى في شعر عروة بن أذينة،  
وعبد الله بن عبد الأعلى ، ومسكين الدارمي ، وغيرهم .

وأخذت موجة الزهد والتقشف والدعوة إلى ترك الدنيا والابتعاد  
عن شهواتها تزداد قوة وانتشاراً في العصر العباسي ، وانتشر الوعاظ في  
كل مكان في هذا العصر . وكان وراء هؤلاء الوعاظ نساك وزهاد  
انصرفوا عن متاع الدنيا الزائل ، وتعلقت نفوسهم بمتاع الآخرة . ومن  
بين هؤلاء النساك والزهاد ظهرت طائفة من الشعراء الذين اتخذوا من  
الزهد مادة لشعرهم ، وموضوعاً ينشدون فيه الكثير من القصائد . ويأتي  
في مقدمة هؤلاء الشعراء : عبد الله بن المبارك ( ت ١٨١ هـ ) ، ومحمد  
ابن كناسة ( ت ٢٠٧ هـ ) ومحمود الوراق ( ت ٢٣٠ هـ ) .

وقد كثر الزهد في بغداد في العصر العباسي . وكان انتشار موجة  
الفسق والقجور، وبجانبها موجة الزندقة والمجون التي انتشرت بين طوائف



عديدة في المجتمع العباسي ، وأحدثت رد فعل عتيقا عند جماعات أخرى كثيرة من أبناء المجتمع أخذت تشق طريقها في اتجاه مغاير لما عليه أنصار الاستهتار والجون ، والخروج على الدين . وراحت تعبر عن نفسها وأفكارها في أشعار زهدية رائعة حملت في طياتها آمالات حياتية عميقة ونظرات إنسانية صافية . وكانت في طبيعتها قريبة من نفوس الجماهير ومشاكلهم ، ومتصلة بقضاياهم ونوازعهم ، ومعبرة عن صميم واقعهم .

وكان وجود هؤلاء الزهاد في بغداد وإسلوهم المؤثر في التعبير مزعجا هؤلاء النحان والمهتكين ، ومقلقا لراحتهم وخواهم ؛ مما جعل هؤلاء يشنون عليهم الهجوم مرة بعد أخرى . كابن المبارك الذي يلدن ناسكا متعبدا يسكن بغداد فيقول :<sup>(١)</sup>

أيها الناسك الذي ليس الصو      ف وأضحى يعد في العباد  
ألزم العسر والنعس فيه      ليس بغداد مسكن الزهاد  
إن بغداد للملوك محل      ومنأخ للقارئ الصباد

كما عرفت الكوفة الكثير من شعراء الزهد الذين أنشدوا الكثير من هذه الأشعار كمسعود بن كدام ، وداود بن نصير الطائي ، وحنس ابن صالح ، وأبي العتاهية ، وغيرهم .

١ - تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية - بيروت - ص ٢٨ .

" وقيمة هذه الزهديات ألفا محصلة أيام وأيام من التجربة ، والفكر العميق ، والرؤية الصافية والراحة النفسية اللا متناهية . بحيث تكون علامات فارقة في حياة البشر وتاريخهم ، مرافقة الإنسان في كل زمان ومكان ، ملازمة له ، موقظة فيه مشاعر الإجلال والرهبة والخشوع والإيمان . فكان ذلك غير سلاح يشهرونه في أوجه الغائبين عن الحياة وعن ذكر الله التالين الغارقين في الشراب . فيسهزون بأقوالهم هذه مشاعرهم ، ويدخلون رهبة الخالق إلى نفوسهم ؛ إذ كثيراً ما أخذ الزهاد بتلايب الخلفاء والملوك وذوى السلطان والجاه والمال ، وقرعهم بعنف القول وعميق الحكمة " (١) . واحتفظت لنا كتب التراث بالكثير من أقوال الزهاد مع الخلفاء وذوى السلطان .

ومن ذلك ما يحكى عن ابن السماك أنه قال غارون الرشيد عندما طلب قدح ماء ليشرب في وجود ابن السماك : " أكلمك بكلمة قبل أن تشرب هذا الماء ؟ قال : قل ما أحببت . قال : يا أمير المؤمنين : لو منعت هذه الشرية إلا بالدنيا وما فيها أكننت نفسيها بالدنيا وما فيها حتى تصل إليك ؟ فقال : نعم . قال : فلاشرب ربي يارك الله فيك . فلما فرغ من شربه قال له : يا أمير المؤمنين : أرأيت لو منعت إخراج هذه الشرية منك

١ - الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق د / علي محمد هاشم - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٢ م - ص ٢٨ .

إلا بالدنيا وما فيها أكنث نفندي ذلك بالدنيا وما فيها ؟ قال : نعم . قال :  
يا أمير المؤمنين : فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه ؟ قال : فيكي هارون  
واشد بكأزه . قال : فقال يحيى بن خالد : يا ابن السمك : آذيت أمير  
المؤمنين . فقال له : وأنت يا يحيى فلا يغرنك رفاهية العيش ولينه<sup>(١)</sup> .

فالواقع أن موجة الزهد التي ظهرت آثارها في الشعر العربي في  
العصرين الأموي والعباسي لم تكن نتيجة دافع ديني فحسب ، بل كانت  
نتيجة دوافع ونزعات أخرى بجانب الدوافع الدينية التي أخذت تحت على  
وجودها وتدفع إلى ظهورها ؛ فقد كان من نتيجة ظهور النزعات المنحرفة  
وارتفاع موجاتها وانغماس كثير من الناس في تيارات الانحراف والشعوبية  
والزندقة ، بجانب تيار اللهو والجنون في العصر العباسي أن ظهرت طائفة  
أخرى أنكروا هذه الحياة المادية المرتبطة بالأرض ارتباطاً رخيصاً ، فمضوا  
بفقسون في وجه تباركاً ويقومون السدود في وجهها ، فالتجهوا إلى الزهد  
والنقش ، وأعرضوا عن الدنيا ومناعها ، ومضوا يدعون الناس إلى عالم  
روحاني ويذكرونهم بفناء هذه الحياة التي جرفتهم تياراتها المادية ، وأن  
الموت يقف على بابها بالمرصاد ، وأن وراءها حياة أخرى باقية بحاسب  
المرء فيها على ما قدمت يدها في حياته الدنيا<sup>(٢)</sup> . أي أن الأرض

١ - تاريخ بغداد - ٥ / ٣٧٢ .

٢ - انظر : الشعر العباسي نحو منهج جديد - ٥ / يوسف خليف - ص ٢٨ .

والظروف الاجتماعية والسياسية في ذلك العصر و في العصر السابق عليه  
- العصر الأموي - كانت مسئولة إلى حد بعيد عن ظهور وقوة موجة  
الزهد في هذين العصرين .

وبناء على ما سبق نذكر أن الزهد ظاهرة قديمة في المجتمع الإسلامي  
وجدت مع ظهور الإسلام ، وتطورت مع مرور الوقت حتى ذاعت  
وانتشرت وكثر الشعراء المعروفون عنها في العصر العباسي .

وينفى الدكتور عزيز فهمي في حديثه عن الزهد أن يكون الزهد قد  
نشأ نتيجة قسوة الخلفاء وقطاعتهم في العصر العباسي . ويرى أن ذلك لو  
كان سبباً لنشأة الزهد لكان الزهد قد وجد في العصر الأموي الذي امتلأ  
بكل ألوان القسوة والشدة والبطش من جانب الخلفاء الأمويين وبعض  
أمرائهم . فالسياسة القاسية - في نظره - لا تحول الناس إلى الزهد ، ولا  
تصرفهم إلى الدين . إنما ينشأ الزهد في نفوس هادئة مطمئنة سكن روعها  
فأخذت تفكر في هذا الكون وما يحتوي عليه . فالزهد ينشأ في نفوس  
هادئة ليس لها من ظروف الحياة ما يثقلها وبرهقها فتصرف إلى التفكير في  
الدين والموت وما بعده . ويرى الدكتور عزيز فهمي لذلك أن الزهد في  
المجتمع العربي أثر من آثار الفرس ؛ فقد عرف تاريخ الفرس التقدم بأخبار  
التحل المتزهدة ، وبالمذاهب الدينية المتعارضة<sup>(١)</sup>.

١ - المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول - تحقيق : محمد البقلى - دار  
العارف - ٢٩٤ ، ٢٩٥ بتصرف .

ومع تسليمنا بأثر القوس في وجود الزهد في المجتمع العربي إلا أنه لا يمكن إنكار دور السياسة والحياة السياسية في ظهور وانتشار موجة الزهد في هذا المجتمع . فالأحوال السياسية المضطربة تساهم مع غيرها من العيوب الاجتماعية والبيارات الثقافية في تحول جماعة من أبناء المجتمع الذين قوهم المصائب والأحداث السياسية الخطيرة إلى الجهة المقابلة ، وتجعلهم يفرون من الدنيا مفسرين الأحوال السيئة في المجتمع بأنها ليست إلا مظهرا من مظاهر غضب الله على المجتمع ، لأن أبناءه تغلوا عن طريق الله فتغلى الله عنهم ، وأن الخلاص لن يكون إلا بالرجوع إلى الله والإيمان في التوبة والإنابة . حدث هذا في العصرين الأموي والعباسي معا . وقد عرفنا فيما سبق أن الزهد قد وجد في العصر الأموي بل وفيما قبل العصر الأموي ، خلافا لما قال به الدكتور عزيز فهمي . وعرفنا أيضا أن الأحداث السياسية وشدة اضطراب المجتمع في العصر الأموي كان لها تأثير كبير في ازدياد موجة الزهد في هذا العصر . وكان للاضطراب السياسي في العصر العباسي أيضا بجانب الاضطراب الاجتماعي أثره الكبير أيضا في ازدياد وانتشار هذه الموجة أكثر مما كانت عليه في العصر الأموي . وهذا شيء طبيعي لأنه من المعروف أن الغلو في اتجاه من اتجاهات الحياة لابد أن يقابله اتجاه آخر مضاد له . ومن ثم انتشر الزهد في هذين العصرين ، ووجد جمع كبير من رجال الأدب عملوا جادين لنصرة

القضية وإبعاد الناس عن الرزديلة وصاغوا أفكارهم شعراً ونثراً .

أما عن شعر الزهد في ديوان البارودي فيمكننا القول بأن البارودي - هذا الشاعر السياسي النائر المعتد بنفسه التباه بها ، والذي ترقى في الحياة السياسية إلى أعلى المناصب ، والذي أكثر في شعره من الحديث عن الحمر ووصفها وأثرها في شاربها - هذا الشاعر رغم ذلك كله قال الكثير من شعر الزهد . إذ نجد له في ديوانه أكثر من ثلاثين قصيدة ومقطوعة في هذا الغرض بجانب عشرات الأبيات المبعثرة في قصائد الأخرى يلم فيها الدنيا ، ويتحدث عن زوالها وفنائها . وقد طرقت البارودي في شعره في الزهد الكثير من المعاني - إن لم يكن كل المعاني - التي نجدها عند كبار شعراء الزهد في الأدب العربي في عصورهم المختلفة . ومن هذا ندرك مدى أهمية هذا الغرض ومولته بين أغراض شعر البارودي . وهذا أيضاً ما جعلنا نخالف الدكتور عمر الدسوقي في حكمه على هذا الغرض بالقلّة في شعر البارودي حين قال عن البارودي : " وعلى كل فما قاله في الزهد قليل " <sup>(١)</sup> . فما قاله البارودي في هذا الغرض يتساوى مع ما قاله في غرض من أغراض شعره المهمة وهو غرض الرثاء إن لم يكن يفوقه .

١ - في الأدب الحديث - ص ٧٥ - دار الفكر العربي ١ / ٢٣١ .

كما أعانف الدكتور عمر الدسوقي في استدلاله على قلّة هذا الشعر عند البارودي بأنّه كان أثراً " لنوبات كانت تعتربه فيشأه من الدنيا ويتذكر الموت، الموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن العوايسة والجهل ، ويذكره بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء وأصحاب عروش وضياع ذهبوا وذهبت ديارهم الخافلة باللذات وعمرت منهم القصور ولم يذعنهم الموت ما هم ولا جاههم " (١) . أو بقوله : " لعل قوله في الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التي غلبه فيها اليأس على أمره وهو وحيد شريد يعانى غصص القراق والنقى . وإلا فهذه النفس الطموح التي عاشرت وعامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت ونعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد في الحياة وتعلها لم تزهد إلا مرغمة " (٢) .

فهذا الذي ذكره الدكتور هو بمثابة الدوافع التي دفعت البارودي إلى القول في الزهد . وهذا لا حير فيه ؛ فكل غرض من أغراض شعر الشاعر - إن لم تكن كل قصيدة من قصائده - لا بد لها من دافع يدفعه إلى إنشادها . والزهد في ذلك مثله مثل بقية أغراض شعر البارودي .

١ - المرجع السابق ١ / ٢٣٦ .

٢ - نفس المرجع ١ / ٢٣٦ . وقد ذكر الدكتور عمر الدسوقي هذا الكلام بنصه في كتابه : محمود سامي البارودي / ط دار المعارف - سلسلة نوايع الفكر العربي - ط ٥ - ١٩٩٣ م ص ٤٤ .

وليس معنى زهد البارودى أن يتعزل تماما عن الحياة ، ويتجرد من كل منصب وجاه له فيها ؛ فالزهد فى الإسلام لا يعنى تمام الانقطاع عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل . زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب . زهد مستند إلى مثل قول الله - تعالى - ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ <sup>(١)</sup> .

وهو نصيب ينبغي ألا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمه الخالد .

وهذا النوع من الزهد هو ما نلمسه فى شعر البارودى فى هذا الباب ، والذي يعبر فيه عن عدم تكاليه على الدنيا أو تمسكه الشديد بأمورها ومتاعها ، وإنما يكتفى من مغائرها بالقليل الذى يضمن له العيش الكريم كإنسان مسلم لا ينبغي أن يكون عالة على غيره ، وفى نفس الوقت لا تكون الدنيا وحدها شغله وهمه .

كما أن فى ديوان البارودى شعرا كثيرا فى باب الزهد يرجع لتاريخ نظمه له إلى ما قبل فترة نفيه ، وما عاشه فيها من وحدة وفراق وبأس . والمهم فى هذا الشأن هو أن يكون البارودى صادقا فى شعره فى الزهد . وهذا ما سنتوقف معه ضمن ما نتناوله فى الفصل التالى إن شاء الله .

١ - من الآية رقم ٧٧ من سورة القصص .





## الفصل الثاني

### أفكار ومعاني شعر الزهد عند البارودي

تناول البارودي في شعر الزهد العديد من الأفكار والمعاني التي تناولها قبله شعراء الزهد في العصور السابقة. وكانت له طريقتة الخاصة في تناول هذه الأفكار والمعاني؛ حيث جاءت أشعاره ترجمة لأحاسيس ومشاعره ولما مر بنفسه من أحداث، ومعبرة عن نظراته تجاه تلك الأفكار والمعاني.

وأحب أن أنه هنا إلى أن المعاني والأفكار التي تناولها البارودي في شعر الزهد إنما هي معانٍ متقاربة ومتلازمة إلى حد كبير، ولا يكاد يفصل بينها سوى خيوط دقيقة، لأنها في النهاية تؤدي إلى نتيجة واحدة وهي نفور الزاهد عن الدنيا، وإقباله على التوسل بربه تعالى. وطعمه فيما أعده لعباده المخلصين في الآخرة.

ويمكن إجمال أفكار شعر الزهد عند البارودي في أربع أفكار رئيسية يتدرج تحت كل منها العديد من المعاني التي توضحها وتجلي معانيها في شعر الشاعر. وتوضح هذه الأفكار وما يتصل بها من معانٍ فيما يلي:

# أ- تزيه الله وتقديسه وتعداد صفاته:

فقد عبر البارودي في شعر الزهد عن علاقته بالله - سبحانه وتعالى - وعن تزيهه وتقديسه ووصفه - تعالى - بصفات الكمال.

- فقد عبر في بعض شعره الزهدي عن شكره لله - سبحانه وتعالى - على آلائه. وعن حمده - عز وجل - على نعمائه. فهو - سبحانه - الضار والنافع، وليس لغيره قدرة مع قدرته، وليس هناك مشيئة غير مشيئته، وأنه لا يلحق من تمسك به ضرر إلا إذا قدره الله عليه. كما أنه ليس لمبتعد عنه - سبحانه - قوة ولا ناصر. يقول البارودي في ذلك: (١)

لك الحمد إن الخير منك وإنني لصنعك يا رب السماوات شاكر  
فأنت الذي أوليتني كل نعم. وهديتني حتى اصطفتني العشائر  
لقرب في الخير الذي أنا راغب. وباعدني الشر الذي أنا حاذر  
فليس لمن تقصيه في الناس نافع. وليس لمن تدنيه في الناس حائر  
ولا لامرئ أحمته الرشد خاذل. ولا لامرئ أوردته الغي ناصر

- وتحدث البارودي عن تزيه الله - سبحانه - وتقديسه عما يصفه به الملحدون من اليهود والنصارى ومن تبعهم من الفلاسفة الملحدين. ويبتذل أقوالهم في جنب الله، ويرى أنها أحوال وهتان وأساطير ملفقة

١ - ديوان البارودي - شرح وتعليق: علي عبد القصود عبد الرحيم - ص ٢٦٤.

مغلقة بأشكال من الحكمة الواهية غير الصائبة والتي حاولوا من خلالها إخفاء تخطيطهم وبعدهم عن الصواب . يقول البارودي: (١)

تبارك الله عما قبل وانتدعت في ذاته من أصاليل وبعث  
قد لفقوها أساطيراً محيرة بحكمة ذات أشكال وألوان  
كأنهم قد أصابوا طرفة عجا أو جاءهم لبأ صدق يرهان  
ولو تكشف هذا الأمر لارتدعت معاشر غلطوا كفرأ بيمان

- وفي موضع آخر يتحدث البارودي عن تعلقه بالله - سبحانه وتعالى - والعودة إليه والاعتراف له بالقدر والالوهية. كما يعلن عن حبه لله - تعالى - وتقديسه وتزييه وأن الجاه والسمو والرفعة لا تنحقق للعبد إلا بطاعة الله - عز وجل - . يقول البارودي: (٢)

ديني الخيف وربي الله وشهادتي أن ليس إلا هو  
لا جاه لي إلا بطاعته ولنعم على الطاعة الجاه  
أنا خاشع لجلال قدرته متقلب الجنبين أواد  
فأصالي للوجد ناز غصني ومحاجري بالدع أمواه  
زهت القلوب بنور حكمته وتعطرت بالذكر أفواه  
أنا أمة وحدي على سرف في حبه والناس أشباه  
إن تاه غيري بالزمان قلبي قلب بذكر الله تياه

١ - الديوان ٥٨٦.

٢ - ديوان البارودي ٥٩٣.

وحد الله - سبحانه وتعالى - وتقديسه وتزيينه والتعظيم عن حبه والتعلق به سبحانه من ألصق المعاني بالزهد؛ فالزاهد يستشعر وجود الله - تعالى - في كل حين بل في كل حركة من حركاته. وهو يعتقد اعتقاداً لا شك فيه أن كل نعمة نصيبه في هذه الدنيا إنما هي من الله، وواجبه نحوها شكره - تعالى - عليها وحده على آلائه. كما يؤمن إيماناً راسخاً بأن الله موه عن كل نقص سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، المصنف بكل عظمة وجلال. وهذا معنى يملأ نفس الزاهد طمأنينة وراحة، بل تفاؤلاً وأمناً فلا يخشى شيئاً؛ إذ لا يتمنى غير ما يحدث. وهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن كل ما يزل به إنما هو بقدر فيجدر به أن يستقبله بنفس راضية.

ومن هنا تحدث البارودي في زهده عن هذا الجانب المهم في مثل هذا الفن من خلال ذكره لبعض المعاني التي توضحه. ونراه يعرض لهذا الجانب في مستهل قصائده في بعض الأحيان، وفي خواتمها في بعض الأحيان الأخرى. وقد يفرد له بعض المقطوعات المستقلة، وجاءت كلها في جو إسلامي خالص.

#### ب- التوبة والندم :

التوبة والحديث عنها من أهم الأفكار التي يتناولها الزهاد في أشعارهم. فهي من أولى المراحل التي يمر بها هؤلاء الشعراء بعد أن يعودوا إلى صوابهم ويقنعوا عن معاصيهم ومجوسهم. وهم في حديثهم عن التوبة يصورون ما سلف في ماضيهم من عصيان وآثام ويعترفون بما ارتكبه من ذنب، ويدعون الله تضرعاً وحقيقة أن يقبل توبتهم وألا يؤاخذهم بذنوبهم. وقد توقف البارودي في شعره في الزهد مع هذه الفكرة وتحدث عنها من خلال بعض المضامين والمعاني.

- فنقرأ في شعر الزهد عند البارودي بعض الأشعار التي عبر فيها عن حزنه على ما مضى من عمره وأبدى تحسره على سنوات عمره السالفة التي أضاعت قواه وأرهقت عوده، وحولته إنساناً حزيناً بين أهله وجيرانه. يقول في ذلك: (١)

إن الدلائل والحسن التي عرّضت      نلت قواي وفلت غرب أشجائي  
وخلقتني على ما كان من طرب      بادي الأسافة في قومي وجيراني

- ويعترف البارودي بذنبه ويعلن عن تقصيره في جنب الله، وعن إسراره على نفسه فيما مضى، وتماذيه في الغواية والضلال في فترات من

حياته رغم علمه بمصيره، ولكن غرور الأمل كان يسول له السير في طريق المعاصي حتى تقدمت به السن وانحدرت به أيامه نحو الأفول. يقول في ذلك: <sup>(١)</sup>

أنسا يا دهرُ عالمٍ بمصري      فبك لكنتي جرحُ العنانِ  
قد تماديت في الغواية حتى      كبح الدهرُ شرتي وشاني

- ولكنه بعد أن تقدمت به السن وتجاوز مرحلة الشباب الستم بعصيان نفسه وابتعد عن الغواية وعن التعلق بالدنيا وزخارفها ورجع إلى الله - تعالى - وناب وأناب. يقول البارودي: <sup>(٢)</sup>

لزعّت عن الصبا وعصيت نفسي      ودافعتُ الغوايةَ بالثباتِ  
وقلتُ لصوتي - والعينُ غرقى      بأدمعها - رويدك لا تمثني  
فقد ولي الصبا إلا قلباً      أنازعُ سؤره بفضولِ كاسي  
ومن يك جاوز العشرين تسرى      وأردفها بأربعه وخس  
فقد سقرت لعينه الليالي      وبأن له الهدى من بعد كس

- ويذكر البارودي أن العيش الرغد في هذه الحياة ما أطيبه إلا أنه يقف وسرعان ما يزول. وقد عاش هو زمناً مقتولاً برغد العيش وطيبه حتى أنه التفت لتلذذه يقرب أفول نجمه وتحول حياته وجهة أخرى عكس

١ - ديوان البارودي ٥٧٥.

٢ - ديوان البارودي ٢٨٥.

الوجهة التي كانت تسير فيها. يقول: (١)

ما أطيب العيش لولا أنه فاني تلي النفوس ولا يلقى الجديعان  
قد كنت في غرة حتى إذا انقضت أهدت تساريح لا تنفك تغشاني  
وشية كلسان الفجر ناطقة بما طواه عن الإفشاء كنماني

- ومن الطبيعي أن تكون للبارودي هفواته ومعاصيه. فهو كثيره  
من بني الإنسان كثيرا ما تعرهم الدنيا وتلهيهم الحياة وتشغلهم المناسبات  
فينساقون إليها ويلهون وراءها. وقد تهرهم إلى طريق الغواية والضلال  
وخاصة في فترات الفتوة والشباب. حتى إذا ما ذكرهم الشيب بما مضى  
من عمرهم، وأصابهم الدنيا ببعض آلامها، نزعوا عن صباهم، ونظروا  
إلى أفعالهم ولما سينول إليه أمرهم بعد الموت؛ فأعلنوا عن توبتهم،  
ورجعوا إلى الله يستغفرونه، ويطلبون منه - تعالى - المغفرة والرحمة وقبول  
التوبة.

ومع اعتراف البارودي بخطئه وتقصيره وإسرافه على نفسه في بعض  
شعره تجده يعلن في بعضه الآخر عن عدم يأسه من رحمة الله - تعالى -  
ورضوانه وقبول توبته. فأنه ذو من وغفران، وهو الذي يغفر الذنوب  
جميعا، وهو - سبحانه - أهل التقوى وأهل المغفرة. وكيف لا وهو



الرحيم بعباده؛ فهو الذي خلقهم وأصبح عليهم نعمه، وسخر لهم ما في الكون؛ فقدر الشمس والقمر بحسان، والكواكب والنجوم مسخرات بأمره، وأرسل الرياح تاتي بالغيث برحمته فيحيي به الأرض بعد موتها. فسبحانه وتعالى لا يحيط به وصف مخلوق، له وحده ملك السموات والأرض، يغفر لمن يشاء بغضله ومته، ويعذب من يشاء بعدله وحكمته. يقول البارودي: (١)

يا نفس لا تلجي بأساً بما كسبت	يسدك فسا لله ذو من وغفران
يعفو عن الذنب حتى يستوي كرمه	لديه ذو العمل السرور والجاني
هو الذي جعل الأفلاك دائرة	وصور الخلق من إنس ومن جان
وقدر الشمس قمري في منازلها	والنجم والقمر الساري بحسان
سبحانه جل عن وصف يحيط به	وكيف يدرك وصف الدائم القاني

- ويتوجه البارودي إلى نفسه يحثها على الصبر على ما قد تأتي به الأيام من مكروه عسى الله أن يقبل توبته ويقلله من عثراته ويهديه إلى طريق الهدى والنور. يقول البارودي: (٢)

يا نفس لا تجزي فالخير منتظر	وصاحب الصبر لا تبلى مرارة
لعل بلجة نور يستضاء بها	بعد الظلام الذي عمت دياجرة

١ - ديوان البارودي ٥٨٥.

٢ - ديوان البارودي ٢٦٦.

- وفي هذا المقام يتوجه البارودي إلى ربه بالدعاء راجيا منه أن يغفر له ذنوبه، ويستتر - بعفوه - زلاته وعصيانته، ولا يكله إلى عمله. لأنه إذا أخذ به عمله فسوف يكون من الخاسرين الخرومين من جنة الله ونعيمها. يقول: (١)

يا رب إنك ذو من ومغفرة      قاسر بعقوك زلاتي وعصياتي  
ولا تكلني إلى ما كان من عثلي      فإنه سبب يفضي لحرماتي

وهو في رجائه عفو الله ورحمته ، وطمعه في غفران الله ومحو زلاته يتوسل البارودي بالمصطفى ﷺ متمنيا أن يرجه الله ويغفر له ، ولا يكله إلى نفسه ، ولا يؤاخذه بما قدمت يداه. فقد تولى عسره وانقضى، ولم يعد له سوى الله - سبحانه وتعالى - وكل أمل له أن ينجيه الله من هول الموقف يوم القيامة. يقول في مدح النبي ﷺ : (٢)

يا رب بالمصطفى هب لي وإن عظمت      جرأتي رجة تقضي عن الخبيث  
ولا تكلني إلى نفسي فإن يدي      مغلولة وصباحي غور مبلج  
مالي سواك وأنيت المسعان إذا      ضاقت الزحام غداة الموقف الحرج  
لم يسق لي أمل إلا إليك فلا      تقطع رجائي فقد أشقت من حرجي

وهكذا أولى البارودي هذا الجانب الإيماني حظا لا بأس به من

١ - ديوان البارودي ٥٨٦.

٢ - ديوان البارودي ٩٠.

اهتمامه وعنايته، وعبر بأكثر من معنى عن ندمه عن ما فات من عصيلك، وعن توبته من كل ما أسلف من آثام، وعن رغبته في الاعتصام بحبل الله وبمعالم الطريق الموصلة إلى رحمته وعفوه ومغفرته سبحانه وتعالى.

#### ج - فكرة المصير (أو الحياة والموت) :

والفكرة الثالثة من الأفكار التي تناولها البارودي في شعره الزهدي هي فكرة مصير الإنسان في هذه الحياة ومصيره بعد الموت. وهي الفكرة الأساسية في شعر الزهد عنده؛ فقد ترددت في شعره بصورة واسعة. ويظهر من شعر البارودي حولها انشغاله بها انشغالا كبيرا. ونراه يعبر عنها في صور شتى وأساليب متعددة. فكان يظوف حولها حيناً، ويتغافل في أعماقها حيناً آخر. وعرضها علينا في نماذج مختلفة من شعره، متأثراً في ذلك بكبار شعراء الزهد في الأدب العربي كسأبي العتاهية وأبي العلاء المعري. وإن كان تناول البارودي لهذه الفكرة تناولاً دينياً عالماً يختفي منه الشك والخيرة، ويتضح فيه الإيمان واليقين، وليس تناولاً فلسفياً كما كان عند أبي العلاء المعري مثلاً.

وكان البارودي في تناوله لهذه الفكرة ينبه أولئك الغافلين الذين أطمأنوا إلى حياتهم الدنيا، وغفلوا عن المصير الخسوم الذي ينتظرهم. ولذلك تكثر في شعره عن هذه الفكرة تلك الصور التي تشيع جواً من

الحزن والشاؤم والانتفاض في نفوس الناس. وكأنه كان يرى في إثارة هذه المشاعر وسيلة فعالة لتنبيه هؤلاء الغافلين.

- تحدث البارودي كثيرا عن فناء هذه الحياة وسرعة انتهاء أيامها، وأنها إذا أقبلت على الإنسان فسرعان ما يؤذن إقبالها بالانصراف، فما هي إلا دار متاع وغرور، وليست دار إقامة أو استقرار، وإنما هي دار فانية يفتن كل ما فيها، ولا يبقى إلا وجه الله - سبحانه وتعالى - لأن الموت مترصد بكل إنسان. ومع علم الإنسان بذلك إلا أن ضروب الأمل تشغله عن آخرته حتى يفجؤه الموت. يقول البارودي:<sup>(١)</sup>

أي شيء يبقى على الحدائق والسمايا خصيمة الخيوان؟  
قد بلونا كيد الزمان ولكن شغلنا عنه ضروب الأمان

- ومرة أخرى يبين البارودي حقيقة هذه الحياة وحقيقة العيش فيها، وما هو إلا عخطرات عارضة سرعان ما تزول. وما نحن في هذه الحياة إلا كمثل من سقنا، وسوف نرحل عنها كما رحلوا. يقول في ذلك:<sup>(٢)</sup>  
فما العيش إلا خطرة عريضة تسزل كما زال الخيتم من التسم  
وهل نحن إلا مثل من كان قبلنا قبل عن جدب أين ولت وعن ظم

١ - ديوان البارودي ٥٧٣.

٢ - ديوان البارودي ٥٠٦.

- ويقول مفسحاً عن حقيقة هذه الحياة وما فيها: (١)

إنما هذه الحياة غرورٌ      تلطّي بالشقاء والحرمان  
ليس فيها سوى خيالات وهمٍ      تترى بها قرالسخ الأذهان  
خطرات قد حتموها كلاماً      فلسفياً لم يفتنون بمعاني

- وتحدث البارودي كثيراً في شعره الزهدي عن ذم الخرص على الدنيا ، وطالب بالكف عن التكاليف عليها أو اللجوء إلى الحيل المقنوسة من أجل الحصول على قدر أكبر من منافعها. وذكر البارودي في هذا المقام أن المال قد يكون سبباً في شقاء الإنسان وهلاكه في الدنيا وخسرانه في الآخرة. فكم من عاجز أناه رزقه راسعاً، وكم من قادر واسع الحيل ضاق عليه رزقه رغم حيله وفطنته. يقول البارودي: (٢)

لكسلٍ حسّي تدير من طبيعته      يوحسي إليه بما تعيا به النذر  
يرجو ويخشى أموراً لو تدبرها      لزال من قلبه التساميلُ والحقرُ  
تراه يسعى لجمع المال معتقداً      أن الفتي من لديه السامُ والشنرُ

ويقول: (٣)

ألا إنسا الأيام تجري بحكمها      فيحرم ذو كدٍ ويرزق وادعُ

١ - ديوان البارودي ٥٧٤.

٢ - ديوان البارودي ٢٥٦.

٣ - ديوان البارودي ٣١٤.

ويقول موجهاً لومه إلى هؤلاء الذين يلجأون إلى الخيل الملقونة من أجل الحصول على مغنم أكبر من منافع الحياة، ويفنون جدة عمرهم بين الرجاء في تحصيل ما ليس عندهم حيناً، وبين اليأس من تحصيله حيناً آخر، وهم يعلمون أن الغنى والفقر قدرهما الله على خلقه، وأن الإنسان لن يحصل على أكثر مما قدره الله له من الرزق. ويتساءل البارودي موجهاً هذا الصنف من الناس: لم كل هذا والحياة لا تتعدى عن كونها ليس ما يستر الجسد، وأكلة يسد بها الإنسان جوعه، وشربة ماء يكتسبها الظمآن. وما فوق ذلك لن يستفيد به صاحبه وسوف يتركه لمن بعده. يقول البارودي: (١)

إن الفلاة لها رجالٌ غُرُبا      يغنون نيلَ البسرِ بالإفلاسِ  
إن الغنى والفقر في هذا السورى      للفسدِ والله ذو قسطاسِ  
فعلامَ يَبْلِي المَرءُ جِدَّةَ عمره      متقلباً بين الرجا والياسِ؟  
أو ليس أن العيشَ ليسَ عباءةً      ومدادٌ سَفيحٌ ونفحةٌ حاسي؟ (٢)

- يتحدث البارودي في شعره الزهدي أكثر من مرة عن كرهه للحياة وحقيقته بما وبها، ولذا اتفقت الفانية والتي لا تدرم كثيراً. فما أقرب لهايصة الدنيا من بدايتها. يقول: (٣)

١ - الديوان ٣٨١.

٢ - النعنة: الجرعة. وجمعها نعب على وزن رطب.

٣ - ديوان البارودي ١٧٧.

فَسَحَقًا لِسَدَارٍ لَا يَسْدُومُ تَعْيَمُهَا      وَتَا خَلٍّ لَا يَسْدُومُ عَلَى الْعَهْدِ  
وَكَيْفَ يَلْذُ الْمَرْءُ بِالسَّاعِشِ بَعْدَهَا      رَأَى أَنْ سَمَّ الْمَوْتَ فِي ذَلِكَ الشَّهْدِ  
إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَحَدِّهَا      سَوَى مَهْلَةٍ فَالْحَدُّ أَشْبَهُ بِالْهَدِ  
وَيَكْفِي مِنْ أَسْيَابِ كَرِهِهِ لِلدُّنْيَا أَنَّمَا لَمْ تَدْعَ لَهُ شَيْئًا سَوَى رُوحِهِ الَّتِي  
تَتَرَدَّدُ فِي جِسْمِهِ. وَيَرَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ اسْمِهِ نَصِيبٌ. فَالْأَسَاسُ يَدْعُو لَهُ  
(محمودا) وَلَيْتَهُ كَمَا زَعَمُوا. إِذَا لَكَ لَكَ لَهْ شَأْنٌ آخِرٌ. يَقُولُ فِي هَذَا  
الْمَعْنَى: (١)

بِرَتْسِي تَارِيحُ الْحَيَاةِ فَلَمْ تَدْعَ      لَدَيَّ سَوَى رُوحٍ تَرَدَّدُ فِي جِسْمِي  
يَقُولُونَ (محمودا) وَيَا لَيْتَ أَنِّي      كَمَا زَعَمُوا أَوْ لَيْتَ لِي طَالَعًا كَاسِمِي

- وَمِنْ مَنَظِّقِ كَرِهِهِ الْبَارُودِي لِلدُّنْيَا وَذَمُّهُ الْخُرُصَ عَلَيْهَا وَعَلَى  
مَنَاعِهَا نَرَاهُ يَعْجَبُ عَلَى الْعَلِيلِ حَرَصَهُ عَلَى التَّدَاوِي وَاجْتِهَادِهِ فِي الْبَرِّ مَعَ  
عَلْتِهِ. وَمَا عَلِمَ أَنَّ الطَّيِّبَ لَيْسَ بِسَلَامٍ، وَأَنَّ النَّفْسَ لَا تَزَالُ فِي تَنْغِصٍ دَائِمٍ  
مَا دَامَتْ عَلَى قَبْدِ الْحَيَاةِ. وَكَانَ الْحَيَاةُ قَدْ تَعَاهَدَتْ عَلَى نَزْعِ اللَّذَّةِ عَنِ  
الْإِنْسَانِ طَوَالَ مَعِيشَتِهِ فِيهَا. يَقُولُ الْبَارُودِي: (٢)

يُظَنُّ عَلِيلُ الْقَوْمِ فِي الطَّيِّبِ بِرَأَاهُ      وَلَمْ يَدْرَ أَنَّ الطَّيِّبَ لَيْسَ بِسَلَامٍ  
فَيْطَرُّ لَلْشَّيْءِ أَوْ فَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ سَلَامًا      لَسْتُ فَرِّقِي إِلَى أَبْرَاجِهِ بِالْإِسْلَامِ

١ - ديوان البارودي ٥٠٧.

٢ - ديوان البارودي ٥٠٨.

وكيف تنال النفس في الدهر عيشةً تلذ بها والدهر غير مسالم؟  
ويلوم البارودي الإنسان الذي يمتنى أن تطول حياته. ولا يعلم أنه  
كلما طالت حياته كلما طال بؤسه وشقاؤه، وتوالت عليه مصائب الدهر  
وأحزانه. وأما المتعة والسعادة التي يبحث الإنسان عنها فهي لا تتحقق  
إلا في لحظات متفرقة من حياة الإنسان. يقول البارودي: (١)

لعمري أي إن الحياة وإن صفت مسافة يوم فهو صفو مرق  
فليس يوم المرء طول حياته وفي طولها ثقل الحناء مفرق  
وما الدهر إلا مستعد لولثة فحذر من فهو غطبان مطرق

— ويتحدث عن اقترار بعض الناس بهذه الدنيا على الرغم من  
سرعة فنائها. فتراهم لا حين عابدين ثم عليهم الشهور والأعوام وهم في  
غيهم سادرون. ولو تأملوا مظاهر الكون من حوهم لعلموا أن الفناء قد  
كتبه الله على كل ما في الحياة من كائنات، وأن الموت هو النهاية الحتمية  
لكل نفس. يقول البارودي: (٢)

لا تحسب العيش دأماً مسترف هيهات ليس على الزمان دوام  
نسي الشهور وتنهي أيامها لعل السراب وتقضي الأعوام  
والناس فيما بين ذلك وارد أو صادر تجري به الأيام

١ - ديوان البارودي ٣٨٧.

٢ - ديوان البارودي ٤٧٢.



لا طائر ينحو ولا ذو عتسب يبقى وعاقبة النفوس جسام

- ومن منطلق هذا المفهوم يتنازل البارودي عن القابه، ويرى ألفا من باب متاع الحياة الفاني، فوجودها لا يرفع حراً، وعدمها وتجوده منها لا يقلل من شأنه. ومن هنا يطلب ممن يخطبه أن يدعو باسمه مجرداً من الألقاب. لأن هذه الدنيا كلها إلى فناء لا يجوز أن تنباهي بشيء ملكناه فيها. ومن تأمل هذه الدنيا وعرف حقيقتها رضي بالقليل من متاعها. يقول البارودي: (١)

متحكك القلب العلا فادعني باسمي فلا تخفض الألقاب حراً ولا تسمي  
إذا كان عقاب الحديث إلى بلبي فلا فرق بين الحديث ولا الرسم  
تأمل إلى الدنيا بعين بصيرة لعلك ترحى بالقليل من القسَم

"وقد كثرت الحديث عن الرزق في أقوال هؤلاء الزهاد لأنه مدار الصراع بين البشر فبان علموا أنه مقدر كفسوا عن تنازعهم وصراعهم". (٢) "ومن هنا عاب البارودي على الخريص على الدنيا حرصه ومحاولاته التي يبذلها طمعا في أن ينال من الدنيا أكثر مما هو مقدر له. فمع مدحه للسعي والجد المصحوبين بالعزلة والشرف تراه يذم وينسهي عن التعلق بالدنيا والتكالب عليها بنهم ودلة.

١ - ديوان البارودي ٤٧٢.

٢ - شعر الرهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة - د/ علي غيب عطوى - ص ٩٣.

- ويتحدث البارودي عن القناعة في الحياة. وهي في نظره تؤدي إلى رفعة الإنسان وعلو شأنه بين الناس؛ لأن القنوع لا يفتقد على أحد، ولا ينظر إلى ما في أيدي الناس، ولا يفكر كثيرا في أمور الدنيا. أما الطمع فيؤدي بصاحبه إلى المذلة والقلق والحيرة وضيق الصدر، وقد يؤدي بصاحبه إلى أن يصبح أشد ضنكا وضيقا من الفقير المحتاج وإن أقيمت عليه الدنيا بمذاخيرها. بخلاف من اتصف بالقناعة فإنك تراه يعيش حياة كلها استقرار وسعادة وراحة بال. وعلى هذا يدعو البارودي أخاه الإنسان ألا يغتر بهذه الدنيا، وألا يتمسك بها ولا يطمع في المزيد منها حتى وإن رأى منها إقبالا عليه. فالغنى الحقيقي هو غنى النفس لا غنى المال والجاه. وتوأمّل الإنسان أمور هذه الحياة لا تكفي منها بأقل من القليل، وما طمع في شيء يزيد عن حاجته. يقول البارودي: (١)

تزوّد من الدنيا بما فيه بلغة فسوف تعاني الخدب يا راعي الوسمي (٢)  
لعمري لنعم المرء من بات راضيا بما خصه من قبضه مسائق الرسم  
فدع هذه الدنيا وإن هي أقلت عليك يا معاصر البشاشة والنم  
فلو جرب الإنسان أخلاق دهره لأمسك بالياس المريح عن القسم

ولكن ليس معنى دعوة البارودي إلى القناعة أنه يدعو إلى التساعس

- ديوان البارودي ٥٠٦.

٢ - الوسمي: أول مطر الربيع.

عن طلب الرزق وذم السعي؛ فذلك حياة الكسالى الخاملين المتواكلين.  
ولكن المسلم مطالب بأن يعمل لدنياه ولآخريته معا مع عدم الميل إلى الدنيا  
أو التهايل المفقوت في كسب المزيد من متاعها . يقول البارودي في الحث  
عل السعي<sup>(١)</sup>:

تغرب إذا تربت والنيس العسى      فما العسر إلا بمن وراء العسف  
فقد يعدم الإنسان من عسير داره      مناه ويلقى حظّه في التطرف  
فكل مكان يضمن الرزق للفتى      إذا لم يكن فيه عديم التصرف

- ويذم البارودي الزمان الذي تحول ظله عنه وترك في قلبه لوعة  
متقدة، ويتهم الدهر بأنه خداع غرور يغر من يطمع فيه بالمزيد ويخدعه.  
فالجاهل هو من اطمأن إلى الحياة وأمن صروف الدهر، وإذا ما أصيب  
بمكروه فيها هلع وجزع. يقول البارودي<sup>(٢)</sup>:

فيالك من زمان عثيت فيه      ندم السراح والميف الكعاب  
إذا ذكرته نفسي أبصرتّه      كأنني منه أنظر في كتاب  
تحول ظله عني وأذكسي      بقلبي لوعة مثل الثياب  
كذلك الدهر ملاق خلوب      يغر أخا الطماعة بالكذاب

(إن تجارب الشاعر في هذه الحياة جعلته يؤمن بأن الحياة زائلة،

١ - ديوان البارودي ٣٥٨.

٢ - ديوان البارودي ٥٣.

والإنسان فيها ليس مخلداً بل إن مدة وجوده فيها قصيرة. والذهر دائماً يحارب الإنسان ويعانده، وكأنه يعز عليه أن يراه سعيداً في حياته. فأبسام الإنسان السعيدة في الحياة قليلة إذا ما قيست بأيامه الحزينة فيها. وبأليت الإنسان يعني هذه الحقيقة، إذا لأخذ حذرهِ وعمل لما بعد الموت.

- ومن هذا المنطلق كرر البارودي حديثه في شعر الزهد عن هؤلاء الذين يتمنون طول الحياة وامتداد أعمارهم فيها. وهم لا يدرون أنه كلما امتد لهم العمر كلما تكاثرت عليهم الأدواء والأسقام. ويطلب منهم أن يرجعوا بتأملاتهم إلى القرون الماضية: هل خلدت أمة من الأمم السابقة؟ وهل لمساfer إقامة؟ ثم يؤكد هذه الحقيقة بما حدث لمدائن كسرى التي خلعت من أهلها، وكانوا أشداء أعزة. وهذه الأهرامات التي شيدها قدماء المصريين لتكون عنوان قوتهم ومظهر عزهم، ثم بادوا وتركوها شاهدة عليهم. وهكذا الحياة: نقض وإبرام، وحركة وسكون، وانقضاء وخود، وكلام وسكون. لا شيء يبقى كما هو، ولا شيء يستقر على حال واحدة. يقول البارودي: (١)

فأطمح بطرفك. هل ترى من أمسى خلدت؟ وهل لابن السيل مقام؟  
هذي المدائن قد خلعت من أهلها بعد النعم وهذه الأهرام  
لا شيء يبقى غير أن خديعة في الدهر تكسل دوقها الأحلام

- ولقد تينت الأمور بغيرها وأنى عليّ القبض والإسرام
- فإذا السكون تحرك وإذا الحمى د تلهب وإذا السكون كلام
- وإذا الحياة ولا حياة منية نحا بها الأجساد وهي رمام

- وكثيراً ما يضرب البارودي المثل بالأمم السابقة التي قويت وبادت. ويدلل بها على فناء كل حي، وعلى زواله وعدم بقائه في هذه الدنيا أكثر من فترة محدودة. وقد ضرب المثل مرة أخرى بالأهرام وبقائهما بعد فناء أهلها شاهدة على عظمة بانيها ومعيرة عن فناء هذه الحياة وعدم دوامها على حال. فقال: (١)

- أين من كان قبلنا منذ دارت كرة الأرض وهي ذات دحان
- أعم أخلدت إلى الدهر حيناً ثم خسعت في حلة النسيان
- حصداً يد المسون فصارت خيراً في الوجود بعد عيان
- فترسم معالم الأرض واسأل فعمسى أن يجيبك الهرمان
- بقيت بعد صانعها فكيات أثراً ناطقاً بغير لسان
- ومن حديثه عن فناء الأمم السابقة قوله عن "جديس" و"طسم" (٢)
- وهل نحن إلا مثل من كان قبلنا فسل عن "جديس" أين ولت وعن "طسم"
- وقوله عن آثار كسرى وقبصر (٣)

١ - ديوان البارودي ٥٧٤.

٢ - ديوان البارودي ٥٠٦.

٣ - ديوان البارودي ٢٧٥.

ترسم قضاء الأرض شرقاً ومغرباً عساك ترى آثار كسرى وقصر  
ويقول عما حدث لبعض العرب قبل الإسلام ومن كان قبلهم من بعض  
الأمم، وأن مصر هؤلاء جميعاً هو نفس مصر من أتى قبلهم وسيكون  
مصر من سيأتي بعدهم: (١)

وما الأيمان إلا صالسات	عمر بكمل سابعة وتس
أبادت قبلنا إرمًا وعادًا	وطارت بسين ذيبان وعيسى
والتوت بالظليل واستتمالت	عماد الشفوي وهوت بقسى
فلا (جشميد) دافع إذ أتته	بمادنها ولا رب الدوقسى (٢)
على هذا يسم الناس طرًا	ويبقى الله خالق كل نفس

ويتحدث البارودي عن هؤلاء الناس أنفسهم مرة أخرى، ويضم  
إليهم غيرهم ويضرب بهم المثل في القضاء وعدم بقاء الدنيا على حال  
فيقول (٣)

أيسن الألى حلقوا البحر	و وشيدوا ذات العماد
ملكوا التيهانم والنجا	يسد والجواضر واليوادي
بل أين أصحاب الوفو	د وأين أرباب الجلالد؟

١ - ديوان البارودي ٣٨٦.

٢ - جشميد: لقب ملك عظيم من ملوك القرس الأقدمين. الدوقسى: العام القارص  
الكبير.

٣ - ديوان البارودي ١٨٨.

بل أين صنّاع القربى — بعض الجزل والكلم القوراد؟  
كالشاعر الضالّ أو قس من ساعدة الإيسادي  
لعب الزمان بجميعهم ورمى بهم في كل وادي  
فكأنهم لم يلبثوا إلا بهاضماً في سواد

ولعل إكثار البارودي من الحديث في هذا المعنى يرجع إلى أنه رأى  
أن الحديث عن فناء الأمم السابقة يعد من أقوى الأدلة الحسية العملية  
التي تثبت للقارئ فناء هذه الحياة، وعدم بقائها أو دوامها لأحد. وأن لا  
تبقى على شيء. فكما يبقى الأفراد تبقى الأمم والشعوب.

وموقف الزاهد من الدنيا وتعبيره عن ضيقه بها من أهم المعاني ذات  
الصلة بفن الزهد؛ لأن الزهد — كما يفهم من تعريفه الاصطلاحي — هو  
تعبير الزاهد عن عدم حبه للدنيا وعدم إقباله عليها وزهده في متاعها.  
ولذا كان من الطبيعي أن يتناول البارودي هذا المعنى ويتحدث عنه في  
شعره الزهدي.

— كما صور لنا البارودي في شعره في باب الزهد انطباعه النفسية  
عن الموت وقضائه على كل شيء في الحياة ضارباً المثل بقضائه على الملوك  
الأشداء الذين عاشوا أعزّة في هذه الحياة ولكنهم سرعان ما بادوا

وهلكوا. ومن ذلك قوله<sup>(١)</sup>

كل حي يموت ليس في الدنيا موت  
حركات سوف تقبض ثم يتلوها عفتوت  
أمن أملاكهم في كل أفق ملكوت  
ذات التيجان عنهم وخلت منهم موت  
إنما الدنيا عيال باطل سوف يقوت  
ليس للإنسان فيها غير تقوى الله قوت

- وقال مينا حقيقة هذا الزمان ومصورا قصر فترة مكث الإنسان

فيه :<sup>(٢)</sup>

وما الدهر إلا ضوء شمس عالا وكوكب غاب ونبت بقل  
وراحيل أغليه نازل ما قيل قد خيم حتى استقل  
عمامة يحيط فيها النهي عجزا ولا يصر فيها المقل

ويقول في موضع آخر مينا المعنى نفسه<sup>(٣)</sup>

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه وما العيش إلا لينة وزيان

وقد أكد البارودي هذا المعنى هنا وأبان عن قصر عمر الإنسان في هذه

١ - ديوان البارودي ٨٤.

٢ - ديوان البارودي ٤٤٢.

٣ - ديوان البارودي ٤٤٥.



الحياة عن طريق القسم أولاً، ثم عن طريق القصر الذي قصر فيه عمر الإنسان ووجوده في هذه الحياة على يومه الذي يعيشه، ثم عن طريق قصر عيش الإنسان على مجرد توقفه اليسير الذي يعقبه القراق والرحيل.

- ويذكر في أبيات أخرى أن في نفس الإنسان وطبيعته ما يندره ويخوفه من سوء العاقبة إذا لم يقدم لنفسه عملاً صالحاً ينتجيه من أهوال يوم القيامة. فالإنسان لو تدبر أمور حياته وتأمل فيها لاستفاد منها. يقول البارودي: (١)

لكل حسي تدبر من طبيعته      يوحى إليه بما نعا به النذر  
يرجو ويخشى أموراً لو تدبرها      لزال من قلبه التأمل والحذر  
ولذا فعلى الإنسان أن يأخذ حذر، وأن يكون على استعداد لتقبل تقلبات الزمان وأن يكثر من عمل الخير ويتعدى عن الشر: (٢)

فسادر النقلة واعمل لها      ما شئت فسألتهم سريع النسل  
واصمت عن الشر إذا لم تطيق      دفعا وإن صادفت عسرا فقل  
وسو إذا عرضت فرصة      فالبر قد ينمو إذا ما انتقل  
- ويرى البارودي أن الموت يحيط بكل إنسان، ولا مفر منه لأنه مكتوب على كل إنسان بل وعلى كل كائن في هذه الدنيا. يقول: (٣)

١ - ديوان البارودي ٢٥٦.

٢ - ديوان البارودي ٤٤٢.

٣ - ديوان البارودي ٥٨٤.

أني بقر المرء من شرك الردى والموت مقدور على الحيوان  
ويقول مبينا حقيقة هذه الحياة الدنيا، وأنها - كما يقول الله تعالى عنها -  
"وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور"<sup>(١)</sup>. فهي غرور خداعة لا عصمة لأحد  
فيها من الموت الذي لا يفرق بين كبير وصغير، ولا بين حقير وجليل.<sup>(٢)</sup>  
إنما الدنيا غرور لسم تدع طفلاً وكهلاً  
كم حكيم ضلّ فيها فاكسئ بالعلم جهلاً  
ويقول مبينا حال الدهر وحقيقته وسرعة تقلبه:<sup>(٣)</sup>  
وما الدهسر إلا دفر في خلاليه تصاور لم يهد عن مثال  
ففي صفحة منه زمان قد انقضى وفي وجه أخرى دولسة ورجال  
- كما يذكر البارودي أن النتيجة الطبيعية لحياة الإنسان أن يحل به  
الموت بعد وقت محدد يعيشه الإنسان فوق الأرض ينتقل بعده إلى السدار  
الآخرة. وعلى الإنسان أن يأخذ العظة والعبرة ممن سبقه إلى المسوت، وألا  
يلهبه عيشه في الدنيا عن العمل للآخرة. يقول البارودي:<sup>(٤)</sup>  
كسل امرئ سائر دولسة ليس له عن فاتها حرب  
لا البار ينجسو من الحسام ولا يخلص منه الحسام والحرب<sup>(٥)</sup>

١ - من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران.

٢ - ديوان البارودي ٤٥٦.

٣ - ديوان البارودي ٤٦٦.

٤ - ديوان البارودي ٧٧.

٥ - البار: بوع من الصقور. الحرب: ذكر الحبارى.

- مسلط في السورى فلا عجم يلقى على فيكته ولا عرب
- فكم قصور خللت وكم أمم بادت ففصنت بجمعها العرب
- فمزل عامر بقاطنييه ومزل بعد أهله عرب
- يمدو القلق لاهيا بعيشته وليس يدري ما الصاب والعراب

وهكذا عبر البارودي عن انطباعاته النفسية تجاه الموت والحياة والزمان، وأبان عن مصير الإنسان بعد هذه الدنيا، وجاء بصور متعددة عن الدهر والتاس وموقفهم من الحياة حتى يؤثر في نفوس قارئ شعره، وبين لهم حقيقة هذه الحياة وحقيقة العيش فيها.

#### د - الوعظ والإرشاد والتوجيه:

وياب الوعظ والإرشاد من الأبواب التي تحدث فيها البارودي كثيرا في شعر الزهد. وذلك لأنه من ألتصق الأفكار وأشدّها اتصالا بهذا السبب. فالزاهد لا يعيش لنفسه وحدها، ولا يزهد لينجو بنفسه فقط. وإنما هو إنسان مسلم يعمل جاهدا لإنقاذ غيره والوصول به إلى حال النقاء والتسامي في الحياة، وإلى تحقيق رضا الله عنه والابتعاد به عن العذاب في الآخرة. وقد أدرك البارودي قيمة هذه الفكرة وأهميتها وجودها في شعره فأكثر من أشعار الوعظ والإرشاد التي يتوجه فيها إلى كل ضال متعلق بالدنيا غافل عن الآخرة.

والعظات الدينية في شعر البارودي تدور كلها في جو ديني إسلامي وتستمد معانيها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ثم من آرائه هو في الموت والحياة. وهو في هذا كغيره من شعراء الزهد قبله كانوا يضمنون شعرهم في الزهد الكثير من العظات والتوجيهات .. "وهي قد دفن كلها إلى غرض واحد وهو رفض الدنيا والعمل للآخرة. وهو يقف فيها موقف الواعظ الديني يخاطب الناس عتيقا بهم حيناً ومترفقا بهم حيناً آخر. يوعدهم ويتوعددهم، ويتقرب إليهم، ويتساعد عنهم، ويرغبهم ويرهبهم ولكنه دائماً ينسئ لهم السعادة في الآخرة، والعمل الصالح من أجلها في الدنيا."<sup>(١)</sup>

- ومن معانيه في ذلك ما تحدث فيه عن حبه لغيره على التوبة والتعجيل بها، والإجابة إلى الله وطلب المغفرة. على أن يكون ذلك في اليوم قبل الغد. فالغد غير مضمون وجوده؛ ولذا فعلى الإنسان أن يبادر بعمل الصالحات قبل أن يرد حياض الموت. لأنه لا يعدو عن كونه ضيقاً في هذه الحياة وسيرحل عنها في يوم ما. والدار الآخرة هي دار البقاء والخلود. ويسأل كل إنسان عما قدمت يداه. يقول البارودي في ذلك :<sup>(٢)</sup>  
فاضرع إلى الله واستوهبه مغفرة  
تحو الذنوب فجاني الذنب يعتار

١ - في الشعر العباسي نحو منهج جديد - دار يوسف خليف ٧٩.

٢ - ديوان البارودي ٢٥٧.

واعجل ولا تنتظر توباً غداً غداً . فليس في كل حين تقبل العسر  
هيات لا يسوي الشخصان في عمل . هذا صحيح وهذا فاسد قلير<sup>(١)</sup>

ويطلب من الإنسان ألا تلهيه دنياه عن آخرته ، وإن حدث هذا  
للإنسان كان من الخاسرين ، يقول : <sup>(٢)</sup>

أفنتكم الدنيا عن الآخرة وهي من الجهل بكم ساعة  
وغركم منها - وأنتم بكم جوع إليها - قدرها الآخرة

- ويحث البارودي المسلم على فعل الخير وتجنب الشر ، وترك  
الحرص على الدنيا ، والإقبال على الآخرة حتى تطمئن نفسه ويعيش في  
راحة وسكينة . يقول البارودي : <sup>(٣)</sup>

وليكن سعيتك محمداً كلته إن مرعى الشر مكروه أحسن<sup>(٤)</sup>  
واترك الحسرى تعيش في راحة قلما نال مناه من حسرى  
قد يضر الشيء لو جسد نفعه رب طمأن يفسو الماء غص

- ويوجه البارودي لومه إلى المسرف المدلل بنفسه ويعيب عليه  
فخره واعتداده الزائد بنفسه ، والتفخاره بالآباء والأجداد . ويبين له أنه  
من الأولى أن يجعل الإنسان أفعاله - فقط - موطناً لفخره ومناظراً

١ - قلير : فاسد حيث .

٢ - ديوان البارودي ٢٦٣ .

٣ - ديوان البارودي ٢٩٤ .

٤ - حص : نكد مشنوم .

لاعتداده . يقول البارودي :<sup>(١)</sup>

يا أيها السَّيرِفُ المَدُلُّ بنفسيه      كسفينة في لج بحرٍ ماعرة  
أظنُّ أن الفخرَ لو بَّ معلَمٌ      تهو بلسنه وقدرٌ يساعرة  
هيهات ظنك فالعلا أمتية      من دون مبلغها بحارٌ زاعرة  
أتلقت ديارك السيِّ أوتيتها      ولو فلك حسرة في الآخرة  
حنَّامٌ تفخر بالجدود ولم تكلَّ      ما أحرزت تلك الجدود الفاعرة  
فاجعل لنفسك من فعائلك شاهداً      يعنيك عن ذكرِ العظامِ الناعرة

- ويوبخ البارودي هؤلاء المرففين على أنفسهم ، السالين وراء  
شهواتهم الساذجين في طريق الغي والضلال الذين لا يراعون ، ولا  
تنتفعهم الذلر ، ولا يعظون بغيرهم ، فيقول مخاطباً نفسه ضارباً بها  
المثل:<sup>(٢)</sup>

مضى أنت عن أحوبة الغي نازعٌ      وفي الشيب للنفس الأبيسة وازعٌ  
ألا إن في سبع وعشرين حجةً      لكل أخي غرورٍ عن السهو رادعٌ  
فحنَّامٌ تصيبك الغواني بدعها      وفقرو بلبيك الحنَّام السوابعُ  
أما لك في الماحين قبلك زاجرٌ      يكفك عن هذا ؟ بلى أنت طامعٌ

- ويحذر البارودي أولئك اللاهين العائنين المعرضين عن اتباع طريق

١ - ديوان البارودي ٢٦٢ .

٢ - ديوان البارودي ٣١٣ .

المهدي والسادرين في طريق الغي والضلال ، يوجه إليهم لومته وزجره ويدعوهم إلى التوبة قبل فوات وقها فيندم الإنسان حينذاك ولا ينفعه الندم. يقول : <sup>(١)</sup>

يساورنا لا يحمل موارده	حذار من أن يبيسك الشر
تصو إلى اللهو غير مكترث	واللهو فيه السوار والشر
وترك السير غير محتسب	أجراً وبالسير تفصح الأرب
فتب إلى الله قبل مدمسة	تكسر فيها المسموم والكرب
واعند على الخير لما لوق من	هذبه الاعتصاد والشر
وجد بما قد حوت بذاك فما	ينفع ثم اللجين والفرب

- ومرة أخرى يحذر البارودي من الدنيا ومن الاغترار بها فإنها كثيرا ما تعقب المسرة بالحزن ، والنعيم بالإعدام ، والليونة بالخشونة . فلا ودها يبقى ولا صفو عيشها يدوم ، ولا موعودها يتحقق . فكثيرا ما تخلف وعدا وكثيرا ما تخون من استولى بها وصفاتها لا يقاس بكدرها . يقول : <sup>(٢)</sup>

فإنك والدنيا فإن تعيمها	يزول وملبوس الجديدين يخلق
فإن هي أعطتك الين فإنها	ستخشن من بعد اللين وتحرق

١ - الديوان ٧٨ .

٢ - الديوان ٣٨٦ .

فلا ودَّها ببقى ولا صفو عيشها يسدوم ولا موعودها بتحقيق  
فكم أخلفت وعداً وملت صحابة وخانت وقياً فهي بلهاء توقي  
وكيف يعيش الدهر خلوا من الأسى سقيم يعساى يساقوم ويطسرق  
لعمرك أي إن الحياة وإن صفت مسافة يسوم فهو صفو مرتقى

- وكثيراً ما يواجه البارودي لومه وتقريعه لمن غرقم الحياة الدنيا ،  
وشغلته عن الآخرة ، وطلبوا أطم قادرون عليها ، وما دروا أنهم يعيشون  
فيها إلى أجل محدود ، ولذا فعليهم ألا يغتروا بها ، ولا يتخذوها بزينتها .  
ويذكر الشاعر هذا المغرور بأن يتأمل ما سيصير إليه حاله بعد الموت ، وما  
آل إليه حال من سبقوه إلى الآخرة . فإن تدبر هذا فسوف يزهد في الدنيا  
ويغير من سيرته فيها ، يقول البارودي :<sup>(١)</sup>

أيها المغرور مهلا لست للتكريم أهلا  
كيف صادفت الأماني ؟ هل ترى بالدار أهلا ؟  
رب حزن في ثياب عباد غسلياً ومهلا  
وعيون كمن سودا صرّ عند الموت مهلا  
سوف يلقى كل باغ في السورى عزيباً ومهلاً<sup>(٢)</sup>

- ويحدثنا البارودي عن هذا الذي تذكر صباه فيكى وتمنى رجعه .

١ - ديوان البارودي ٤٥٥ .

٢ - البهل : اللعن .



ويخاطبه الشاعر بأن رجوع ما مضى من العمر شيء مستحيل . فهيهات  
أن يرجع يوم فات . ويذكر الشاعر أن كل شيء في هذه الحياة قد كتب  
عليه القضاء وليس الصيا وحده . ولذا فعلى الإنسان ألا يركن إلى هذه  
الدنيا ولا يغتر بظهورها وزينتها ؛ فهي سريعة ما تتغير وتقلب لأهلها ظهير  
الجن . يقول البارودي :<sup>(١)</sup>

ذكر الصَّبَّاءِ فِكْسيَ ولاتِ أَوَّانَ	مِنْ بَعْدِ مَا وُلِّيَ بِهِ الْمَلُوكَانِ
هِيَهَاتَ يَرْجِعُ لِمَا لَمْ يَكُنْ بِهِ	عَصْرَ أَوَّلِ أَرْدَفَتِ بِسَوَانِ
هُوَ عَلَيْكَ فَكُلُّ شَيْءٍ ذَاهِبٌ	وَالدَّهْرُ مُصْدِرُ عِزَّةٍ وَهَوَانِ
وَاحْتَرَّ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا هِيَ أَقْلَسَتْ	بِالشَّرِّ فَهِيَ كَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ

- ويتخذ البارودي من الشيب وظهوره في رأس الإنسان وسيلة  
للوعظ وردع المغرور بالدنيا وتفكيره منها . فالشيب في نظره نموذج من  
تماذج النذر الكثيرة التي تنذر الإنسان بقرب أجله ؛ فإذا دب الشيب في  
رأس إنسان كان حرياً به أن يقلع عن غيه ويتزود لآخرته ؛ فقد دقت فيه  
أجراس الموت وأذن العمر بالرحيل ، وتوشك حياته أن تنقضي وظلها أن  
يتحسر عنه إلى غير مآب . يقول البارودي في ذلك :<sup>(٢)</sup>  
يرى المرء عنوان الموت برأسه ويذهب يلهي نفسه ويصانع

١ - ديوان البارودي ٥٨٣ .

٢ - ديوان البارودي ٣١٣ .

ألا إنَّما هذى النايي عقاربٌ      تدبُّ وهذا الدهرُ ذئبٌ مخدعٌ  
 فلا تحسبن الدهرَ لمةً هائلةً      **«لما هين»** إلا صرله والقبحُ  
 وظهور الشيب في جسم الإنسان يعني تولى الشباب - الذي هو  
 عنوان القوة والحياة - وما يترتب عليه من تولى الصبا وأوقات السهو  
 والطرب . وهذا يفرض على من تولى شبابه أن يرعوي وأن يأخذ الحياة  
 بمأخذ الجد . يقول البارودي في ذلك :<sup>(١)</sup>  
 إلام يسهو بحلميك الطربُ ؟      أبعد حسين في الصبا أربُ ؟  
 هيهات ولى الشباب واقترت      ساعة ورد ناهيا القربُ  
 فليس دون الحسام مبتعدٌ      وليس نحو الحياة مقربُ  
 وتفكير الإنسان في شبابه وفيما مضى من عمره وشبابه يسبب له  
 الكثير من الأحزان ويعد عنه كل لذة . وكيف يجد طعم اللذة من أبيض  
 شعره ، والنحي ظهره ، وذهب شبابه ؟ ويتخذ البارودي من نفسه دليلاً  
 على ذلك فيقول عن نفسه :<sup>(٢)</sup>  
 أعيد يا دهر أيام الشباب      وأين من الصبا ذك الطللاب ؟  
 زماناً كلماً لاحت بفكري      محابله بكبت يعيظ ما بي  
 مضى عيني وغادر بي ولوعاً      تولد منه حزين واكتساي  
 وكيف تلذ بعد الشيب فلسفي      وفي اللذات إن سحت عذاي

١ - ديوان البارودي ٧٧ .

٢ - ديوان البارودي ٥٩ .

ويذكر البارودي أنه ليس الهم أن يفكر الإنسان في الشيب الذي يعتره ، وإنما الهم هو أن يجعل تفكيره فيما سيعقب هذا الشيب فهو الأولى بالتفكير . فها هو البارودي كان يحزنه كثيرا ظهور الشعر الأبيض في رأسه ، ولكنه الآن يرى أن الموت الذي ينتظر به هذا الشيب أولى بهمه وأحزانه . ولما يهون الأمر عليه ويخفف من شدة وطأته على نفسه أن هذا الشيء ليس خاصا به وحده وإنما هو شيء قد كتبه الله على كل إنسان ، والهم أن يتعظ به الإنسان ويتدبر فيما سيأتي بعده . يقول البارودي :<sup>(١)</sup>

وكان يحزني شيب فصرْتُ أرى      أن السدي بعده أولى بأحزائي  
وهون الأمر عندي أن كلُّ فقي      وإن سُمِّلَ من ماء الصبا فاني

وهكذا صور البارودي الشيب بالناعي الذي ينعي إلى صاحبه حياته ونفسه ، وجعله بمثابة النذير الصادق الذي ينذره بدنو أجله وقرب وفاته ، حتى يرتدع ويلوب إلى طريق الهدى والرشاد .

إلى غير ذلك من الأقوال والوسائل التي حاول البارودي بها أن يدفع مثل هؤلاء العابثين إلى التخلي عن الاهتمام الزائد بأمور الحياة الدنيا والاشتغال بها . تلك الأمور التي صرفتهم عن دينهم وعن التعلق بأمور آخرتهم . ومن هنا طلب منهم الشاعر أن يعودوا إلى التمسك بدينهم ،

وأن يكفوا عن الاشتغال الزائد بأمور دنيائهم أو أن يقصروا تعلقهم عليها وحدها حتى يفوزوا في الدنيا والآخرة .

وهكذا أفاض البارودي في شعر الزهد من مواعظه البالغة المؤثرة منها الغافلين الغارقين في الآثام ، الطامعين في الجنان إلى خطورة ما هم فيه من غي وعصيان . ومذكرا إياهم بأن الله ليس بغافل عما يعملون . وهذا لاقتناعه بأن الوعظ والإرشاد من الأبواب المهمة في شعر الزهد ؛ فالوعظ والإرشاد يتناسب مع معنى الزهد ومفهومه ويتصل به اتصالاً قوياً . ومن هنا أكثر منه البارودي وأطال الحديث فيه .

- كما أولى البارودي جانب التوجيه والنصح اهتماماً كبيراً في شعر الزهد عنده . وفي هذا الجانب تناول البارودي الكثير من التعليمات والتوجيهات التي يوجهها إلى قارئ شعره لتفيده في الحياة وفي تعامله مع الناس حوله :

- وأولى هذه النصائح والتوجيهات حثه الإنسان على اختيار الصديق صاحب الخلق الفاضل ، وذلك من خلال بيانه حقيقة الصديق الحق الذي ينبغي على الإنسان أن يتحرى صفاته فيمن يتخذهم خللاً له وأصدقاء . يقول البارودي في ذلك :<sup>(١)</sup>

ليس الصديق الذي تعلقو مناسبه بل الصديق الذي تزكو شائله  
إن رايك الدهر لم تغفل عزائمه أو نايك المسم لم تغفل ومسانله  
برعاك في حالتي بعد ومقرنة ولا تغفل من خير قوايله

ويقول في موضع آخر عن صفات الصديق الذي ينبغي للمسلم أن  
يحرص على صداقة من اتصف بها : (١)

ولا تصطبج إلا امرءاً إن دعوته لدى جرات الحرب ليك واحتذى  
يسرك عند الأمن فضلاً وحكمة ويروضك يوم الروع نبلاً مقدداً

وعلى العكس من ذلك ينهى الباردي مخاطبه عن صداقة نوع من  
الناس تختلف صفاتهم عن صفات أولئك الأخيار المخلصين من الأصدقاء  
والذين رغب في التمسك بصداقتهم في الآيات السابقة . يقول عن هذا  
الصنف من الأصدقاء الذين ينبغي أن نتجنب صداقتهم : (٢)

لا كالذي يدعي وداً وباطنه بجسر أحقادته تعلبي مراحله  
يذم فعل أخيه مظهره أسفاً ليوهم الناس أن الحزن شامله  
وذلك منه عداً في محامله فاحذره واعلم بأن الله خادله

وواضح من هذه الآيات أن البارودي ينهى عن صداقة المنافقين من  
الناس والذين يظهرون لخالصهم الود والوفاء ، ويضمرون قسم الشر

١ - ديوان البارودي ١٩٠ .

٢ - ديوان البارودي ٤٤٦ .

والعداء، ويبذون الأسى والحزن إذا ما أصيب الإنسان بالشر ويحقون ما  
يتمنون له من الأذى والمكروه .

ومرة أخرى يتحدث البارودي عن صاحب السوء ويطلب ممن  
يعادته اجتناب مصاحبه فيقول : <sup>(١)</sup>

وعاشِر من الخَلَل من كان سالماً فليس مسوءاً سالمٌ ومريضٌ

ومما يتصل بذلك أيضاً قوله مبيناً لمخاطبه حقيقة بعض الناس في هذه  
الدنيا حتى لا يغتر بظواهرهم ، ويكون على حذر منهم وهو يتعامل  
معهم: <sup>(٢)</sup>

لا تحسب الناس في الدنيا على ثقة من أمرهم بل على ظنٍ وتحيلٍ  
حب الحياة وبعض الموت أورلهم جين الطباع وتصديق الأباطيل  
ويبدو تأثير البارودي في ذلك بغيره في الحياة وكثرة تجاربه في تعامله  
مع الناس من خلال وظائفه العديدة التي تولاها ، والتي كانت تحتم عليه  
التعامل مع أصناف مختلفة من البشر .

- ومن النصائح والتوجيهات في شعر البارودي في باب الزهد ما  
جاء في قوله يحث أخاه على طهر اللسان وعدم النطق إلا بما يحسن من

١ - ديوان البارودي ٣٠١ .

٢ - ديوان البارودي ٤٤٤ .

الكلام: (١)

ظهر لسائلك ما استطعت ولا تكن  
خسباً يقرب للنفس حلالها  
إن الوقعة لا تعود بخزية أو مة إلا على من قالها

- وينصح البارودي أخاه بالتخلق بخلق الكرم والجود ، وبأن لا يكون  
من المسكين بما هم خوفاً من رزق غد . فأنه وحده مفقد الرزق ،  
وعطائه - سبحانه - متصل بخلقه في كل وقت وحين . ولذا فإن الجبن  
والبخل منقصة تلحق البخل والجبن . وسببها - في رأي الشاعر - سوء  
الظن بالله وعدم الثقة به والبعد عن التوكل عليه . يقول البارودي : (٢)

جد بالنسوال فرزق الله متعيل ولا تكن عن صنع الخير باللاهي  
فالبخل والجبن في الإنسان منقصة لم يجنح غير سوء الظن بالله

فالزيادة في المال دون بذله في قضاء حوائج المعوزين من المسلمين  
يؤدي إلى العاسة والشقاء بهذا المال ، لا إلى السعادة به والعزة . وقد قال  
البارودي في موضع آخر : (٣)

إذا المرء لم ينفق من المال وسع ما دعته المعالي فالراء هو الفقر

- ومن النصائح والتوجيهات في شعر الزهد عند البارودي ما

١ - ديوان البارودي ٤٤٦ .

٢ - ديوان البارودي ٥٩٦ .

٣ - ديوان البارودي ٢٧٥ .

طالب به غيره من الرجال أن يتمسكوا بالخزم ورفض الهوى والبعد عن طاعته والانسحاق وراءه : <sup>(١)</sup>

مَنْ خَالَفَ الخَزْمَ خَانَتْهُ مَعَاذِرُهُ      وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ قَتَلَ نَاصِرَهُ  
وَمَنْ تَرَبَّصَ بِالْإِخْوَانِ يَادِرُهُ      مِنَ الزَّمَانِ فَإِنَّ اللَّهَ قَاهِرُهُ

- ويذكر البارودي أحياناً بأن الله ﷻ أعطى الإنسان العقل والقدرة على التمييز . وكل إنسان أوضح أمامه طريق الرشد والقي وهو محسوس بينهما ، ولكنه سيكون رهيناً بما يجنيه ، وسوف يحاسب على ما قدمته يده . وعلى الإنسان أن يكون على يقين من اتصافه بالفناء وعدم الخلود في هذه الحياة . وهذا ما يفرض عليه أن يجد في اتباع طريق الرشد والصواب حتى يخلف ذكرى حميدة تكون ذخراً له بعد الموت . فالذكرى للإنسان بعد موته عمر ثان . يقول البارودي : <sup>(٢)</sup>

كَيْ كَمَا شَتَّتَ مِنْ رَشَادٍ وَعَسَى      كُلُّ حَيٍّ بِمَا جَاءَهُ رَهِينٌ  
كَلَسْنَا لِلْفَنَاءِ أَوْ لِنَعْتَقِ الأَرْ      ضٌ وَتَأْتِي بَعْدَ الثَّنُونِ شُؤُونٌ  
يَسْطَرُ الْخَلِيسِمُ رَوْنَقَهَا الْبَا      هَرٌ حَقٌّ يَحْصِفُ وَهُوَ رَكِيبٌ  
ذَهَابٌ غَيْرُ ذِكْرَةٍ مِوَفَ تَفْسِي      بَعْدَ حِينٍ وَكُلُّ شَيْءٍ يَحِينُ  
فَاحْتَقِبْ سِيرَةَ الْحَمَامِدِ فَالذِّكْرُ      سِرُّ حَيَاةٍ لَنْ طَوْنَهُ الْمُنُونُ

١ - ديوان البارودي ٢٦٥ .

٢ - ديوان البارودي ٥٨٧ .



- فعلى الإنسان أن يبقى الله حق ثقته ، وأن يكون ممن هؤلاء الذين استشعروا تفاهة هذه الدنيا فلم يشغلوا بزخرفها وزينتها ، وظهروا أنفسهم من أدراكها ، وتعلقوا بالله وتطلعوا إلى ما أعدّه للمؤمنين المخلصين. ومن هذا المنطلق ينصح البارودي هذا الإنسان بأن يحذر الدنيا وغدورها ، ولا يركن إليها ، وألا يعتز بإقبالها عليه في بعض الأوقات ؛ لأنها سريعة القلب ، كثيرة التلون . ومن عاش في غبطة في وقت ما يخشى عليه أن يكون من أهل الممالك . فعلى الإنسان أن يتوقع الجانب السيء من الحياة قبل أن يتوقع الخير منها . يقول البارودي :<sup>(١)</sup>

واحد من الدنيا إذا هي أقبلت      بالشر فهي كثيرة الألقوان  
ودع التعلق بالمال فمسن يعيش      في غبطة يرمي به الرجوان  
لا تسلمن بكسل عام مقبل      خيرا فكل الدهر عام جوان

وقد تختلف مع البارودي في هذه النظرة السوداوية التي نظر بها إلى الحياة في الآيات السابقة ، وأنه لا أمل في توقع الخير منها ، حتى وإن كان يعبر عن رؤية الإنسان الزاهد في الحياة ، فمع إيماننا بمصدر الدنيا وعدم بقائها على حال واحدة فإنه يجب ألا نركن إليها ، وفي نفس الوقت علينا أن نعمل لها وأن نأخذ بأسبابها ونجد في تعبها حتى لا نرعى

بالتخلف والضعف عملاً بقول القائل : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً  
واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، ويقول الرسول ﷺ : - " إن قسامت  
الساعةُ ويدهُ أحدكم فسيلا فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل"<sup>(١)</sup>.

وعلى كل فهذه النصائح والتوجيهات وما صدر عن البارودي من  
مواعظ وإرشادات تدل على طبيعة نفس البارودي الزاهدة ، وما تنطوي  
عليه من الحب والإخلاص والوفاء للآخرين ، كما أتيت البارودي بما أنه  
ليس فرداً أنانياً ولكنه يهيب بكل إنسان أن يحرص على ما يجعله إنساناً  
لقباً صالحاً يتأى بنفسه عن غضب الله وعصيانه وألا تغره الأماني . ولم  
يخل البارودي بنصائحه وبخلاصة تجاربه في هذه الحياة على أعمه الإنسان  
عسى أن تكون عوناً له على النجاة من هول يوم القيامة .

وهكذا نرى البارودي وقد قننل معاني الإسلام في جوهره ونظمها  
شعراً على صورة تهدد ومواعظ وحكم ، وجاء بما في أسلوب سهل  
قريب لا تعقيد فيه ولا معازلة ، فاصداً من ذلك أن تسير هذه الأشعار  
بين الناس فيسهل عليهم فهمها فيعملوا بما تشتمل عليه من مبادئ .

وكانت أفكار شعر الزهد وما يتدرج تحتها من معانٍ مستمدة كلها  
من روح الإسلام وتعاليمه السمحة ، ووجدناه فيها يدعو تارة إلى الزهد

١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ / ٢٩٩ . والحديث رواه أنس بن مالك .

في الدنيا والإعراض عنها وعن متاعها القاني مبينا أثناء ذلك حقيقة هذه الحياة وحقيقة العيش فيها . وتارة يقف فيها واعظا يذكر الناس بالموت وما بعده من حساب وثواب وعقاب . وحينئذ وجدناه يدعو إلى التحلي بأخلاق الإسلام الفاضلة من مثل التواضع وعدم الكبر والتذرع بالصبر أمام شدائد الدنيا ونوائها .. إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة والشيم الإسلامية النبيلة والمعاني الروحية الصافية التي استمدتها من روح الدين الإسلامي الحنيف . مما يدل على أنه كان في شعره هذا صاحب نفس طاهرة وقلب خاشع وروح إسلامية صافية .

#### مدى صدق البارودي في زهده :

وبعد أن تعرفنا - فيما سبق - على أهم المعاني التي تناوذا البارودي في زهده ينبغي أن نتوقف قليلا عند واقعية هذا الفن عنده ومدى صدقه في زهده .

وبدأية نقول : إن الصدق في العمل الأدبي يمنحه درجة عالية من الجودة والتميز . وذكر الدكتور أحمد أمين أن أفلاطون هو أول من أعلن الاهتمام بمبدأ الصدق في الأدب . وذكر " أن أساس كل عمل جيد وعالم في الأدب هو الإخلاص التام من الفرد لنفسه . والإخلاص التام

منه لتجربته الخاصة في الحياة<sup>(١)</sup> . ونوه الدكتور أحمد أمين بأهمية الصدق وتوافره في التجربة الأدبية فقال : <sup>(٢)</sup> "ويدون الإخلاص لا يمكن أن يوجد في الأدب عمل حي . وميزة التجديد في الأدب التي يندأب الناس في البحث عنها ليست في الجدة ولكنها في الصدق . والإنسان سواء كان محبط تجربته وقوته الخاصة كبيرا أو صغيرا فإنه يجب أن يكتب عما تقوده إليه أقدامه ، وأن يهتم بوصف ما عاشه هو وما رآه وفكر فيه وأحسه بصدق وأمانة . ونعني بالصدق أن يعبر عن إحساسه وشعوره لا عن إحساس غيره وشعوره " .

وحين تريد أن تحكم حكما صائبا على مدى الصدق في شعر الزهد عند البارودي لابد أن ترجع إلى سيرة حياة الشاعر ومعرفة الظروف التي دفعته إلى إنشاد هذا الشعر : وهل كان هذا الشعر ترجمة حقيقية لفترة من فترات حياة الشاعر ؟ أم كان مجرد اتجاه في شعره شأنه شأن العديد من الأغراض الشعرية الأخرى في ديوانه ؟

\* إن الكثير من الشعراء الزهاد بدأوا حياتهم محملا ثم أدر كسهم صحو في ضمانهم فأفاقوا مما هم عليه من إثم وتابوا وأنابوا وانقطعوا

١ - النقد الأدبي - أحمد أمين - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٤ - ١٩٦٧ ج ١ ص ٣٧ .  
٢ - المرجع السابق ١ / ٣٧ .

للعبادة والتهجد وحياة الزهد <sup>(١)</sup>.

والبارودي - كشاعر - يصدق عليه كثير من هذا الكلام ؛ ففسي ديوانه الكثير من الأشعار التي وصف بها الخمر ، والكثير أيضا من شعر الغزل واللهو . مما يدل على أن حياته الأولى كان يشوبها بعض ما كانت تقتل به حياة بعض أقرانه من رجال الجيش وأصحاب المناصب العليا من متعة ولغو وجري وراء ملذات الحياة . ومن هنا يجوز لنا أن نتحكم على صدق البارودي في شعره اللاهني الذي أنشده في هذه الفترة من حياته . ولا داعي لأن نتهم البارودي - يدافع تبرئته من الانصاف بالفسق والفجور - بعدم صدق أشعاره في هذا الجانب . فقد عرف عن البارودي صدقه في تجاربه الشعرية حتى في الغزل والحديث عن الخمر . وقد أعلن ذلك الدكتور علي الحديدي الذي كتب كتابا عن البارودي بعد أن جلس مع بعض أفراد أسرة البارودي وأخبروه عن كثير من دقائق حياته . يقول الدكتور الحديدي متحدثا عن صدق البارودي في غزلياته وواقعية شعره في هذا الجانب <sup>(٢)</sup> : " وغزليات البارودي في ديوانه ... تدل على أنه نقل فؤاده حيث شاء من الطوى ، وكابد الغرام الحقيقي مع أكثر من حبيبة في سنوات شبابه . " وطبقة المقياس " كانت آثرهن عنده ، ومن ثم

١ - شعر الزهد في القرنين الحادي والثالث للهجرة - علي نجيب عطوى ص ٢٠٠ .

٢ - محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ١٠٩ .

كانت أكثرهن ذكرا في شعره ... "

ويقول في الرد على من يتهمون البارودي بعدم الصدق في غزله<sup>(١)</sup>  
حق يثبتوا براءته من وقوعه في الحب والغرام وبعض حقوات الشباب:  
"وقد بدا لبعض الكتاب أن يؤكدوا أن البارودي لم يكن صادقا في  
غراماته وقد جزموا بأن قصائده في هذا الفن لم تكن إلا محاكاة لأساليب  
الأقدمين . ولا تدري كيف جاز أن تقوم هذه الدعوى بالرغم من صدق  
العاطفة التي تفيض بها غزليات البارودي فتصل إلى قلوبنا وتشاركنا معه في  
آلام نفسه ومشاعره وملذاته ووماسوسه " .<sup>(٢)</sup>

هذا عن الغزل وما أكثر ما صرح به البارودي عن عشوه في هذا  
الجناب . أما عن الخمر فقد صرح البارودي كثيرا أيضا بمعارفته إياها  
وشربه لها وتمتعه بمجالستها . وحين نقرأ هذه الأشعار نلمس صدقه فيها  
وواقعية كثير منها . وقد حكم الدكتور علي الحديدي بصدق البارودي  
في الحديث عن الخمر كما كان صادقا في غزله فقال <sup>(٣)</sup> : " إن البارودي  
تغنى بالخمر وآثارها في العقول والأحاسيس وبأوصافها وألوانها في جديدها

١ - ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمته لديوان البارودي شرح علي الجارم  
ومحمد شفيق معروف .

٢ - محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ١١٣ .

٣ - المرجع السابق ص ١١٤ .

وعتقها غناء خير مارس الشراب حتى عرف أسرار التجربة . كل ذلك في عاطفة تفيض قوة وحيوية بل تفيض فرحا وهمة ولذة ..... وديوانه مليء بمجالس الشراب في ليالي الأناجيس تارة في ثيابا قصائده وطورا في مقطوعات وقصائد مفردة يصف دلائها وندماها وكنوسها وسقاها وحتى صوت عطاسها حين تفتح للشاربين وصفا رائعا يعود أكثره بنا قرونا إلى الوراء لنستعيد ما نظمه أبو نواس وابن المعتز " . وهذا ما يدل على صدق شعره في الحديث عنها كما كان صادقا في الحديث عن مغامراته مع القتيات الحسان ومطارداته هن .

هذا كله كان في الشطر الأول من حياة البارودي . ويذكر الدكتور علي الحديدي أن فترة اللهو والمتعة بالغزل والخمر انتهت في حياة البارودي في أواخر عام ١٨٦٧ م وبعد زواجه بعديلة هاتم يكن<sup>(١)</sup> وذكر البارودي في شعره أنه بعد هذا العام ( ١٨٦٧ م ) بعام واحد وقد بلغ بها التاسعة والعشرين من عمره ( ١٨٣٩ - ١٨٦٨ م ) بدأ عهد جديد في حياته ابتعد فيه عن الصبا واللهو والغواية . ويتضح هذا في قوله:<sup>(٢)</sup>

تزعّت عن الصبا وعصيت نفسي ودافعت الغواية بالتأسي

١ - انظر المرجع السابق ١١٧ .

٢ - ديوان البارودي ٢٨٥ .

ومن بك جاوز العشرين تترى وأردفها بأربعة وخمسين  
فقد سمرت أعينه الليالي وبان له الهدى من بعد ليس

وقول في موضع آخر :<sup>(١)</sup>

متى أنت عن أحوق الغم نازع وفي الشيب للنفس الأية وازع ١٩  
ألا إن في تسع وعشرين حجة لكل أحس نحو عن اللهو رادع

ثم بعد ذلك نفى الشاعر إلى جزيرة " سرنديب " وطالت مدة نفيه  
وبعده عن أهله ووطنه ، وأثناء هذه المدة مات ابنه وابنته وزوجته مما كان  
له الأثر الكبير في تحويل حياته نحو مسار آخر يسوده الزهد وبغض الدنيا  
والتفكير في الموت وما بعده .

وقد حاول الدكتور شوقي ضيف أن يتبين سبب تحول البارودي في  
شعره من شاعر الحب والفروسية والخمر إلى شاعر معرض عن الدنيا  
زاهد في زخرفها منشد لهذا اللون من الشعر " الزهدي " . وذكر أن  
البارودي أرجع سبب ذلك إلى ظهور الشيب في رأسه كما ورد في أبياته  
السنية السابقة . وتشكك الدكتور / شوقي ضيف في هذا السبب الذي  
ذكره الشاعر - وأنا معه - لأن ديوانه فيه الكثير من الأشعار التي نظمها  
في هذه الفترة من حياته - والتي سبقت النفي - تمتلئ بالحديث عن الصبا



واللهير ووصف الحشر وما يتضمنها من الفخر ووصف المنيعة اللاهية .  
ورأي الدكتور شوقي ضيف أن سبب هذا التحول في شعر الشاعر يرجع  
- في الغالب - إلى هذا الضيق الذي بدأ يحس به بعد " إحساسه بفساد  
حاشية إسماعيل ، وفساد إسماعيل نفسه وما أخذ يثقل به ظهر البلاد من  
أعباء الديون . وآية ذلك الرأي ... ما يعتلى به شعره حينئذ من شكوى  
محمضة يتم فيها بالناس وأخلاقهم وما يسارعون إليه من الشر البشع ، وما  
يضمرون من الخيث والمكر ومن الخيانة والغدر . وهو يطيل في هذه المعاني  
إطالة لا تعدها عنده قبل هذه الفترة من حياته " (١)

ويتفق مع الدكتور شوقي ضيف في رأيه هذا الدكتور علي الحديدي  
الذي يرى أن الدافع القومي وخوف البارودي على مصر بعد أن تعرضت  
إلى ما تعرضت له من ظلم على يد إسماعيل وحاشيته وما وقع فيها من  
أحداث تنذر بالخطر كان هو الدافع الأول لتحول البارودي من عهد  
الصبا واللهو والغواية إلى عهد الجد والمسئولية والهداية . واستشهد  
الدكتور الحديدي على ذلك بقصيدة البارودي العينية التي يقول في أبياتها  
الأولى : (٢)

مق أنت عن أحرقه العشي نازع وفي الشيب للنقر الأمية رازع !

١ - البارودي رائد الشعر الحديث - ص ٥٩ .

٢ - الديوان ٣١٣

ألا إن في سبع وعشرين حجةً لكل أخي لمسي عن السهو رادع  
فحنّام نصيبك العسواني بدفعا وقفو بليصك الحنّام السواجع  
وهل يستفيق المرء من سكرة الصبا إذا لم تقذب جانبيه الوقيائع ؟

ويرى الدكتور الحديدي أن " القصيدة تشهد ميلاد ثورة أخذت  
تحتاج البارودي وغلا عليه نفسه ودنياء وتنقله من عالم الفردية الذاتية التي  
يعيش فيها إلى محيط العمل من أجل الجميع ، ومن محور الحياة الخاصة  
الذي يدور فيه إلى مجال النضال الوطني الكبير ... ومثل هذا التحول  
الكبير لا يمكن أن يحدث للبارودي فجأة ودون بواعت ومقدمات أو أن  
يسببه بلوغه سنا معينة في حياته . بل لابد أن ذوافع قوية كانت وراء هذا  
التحول . وتجارب معينة عاشها البارودي فالتعللت بها نفسه وشجنت بها  
عواطفه حتى وصلت إلى درجة التشبع فأفاق " (١)

ومفهوم الكلام السابق أن هذا التحول في شعر البارودي يرجع إلى  
أزمته النفسية التي ترجع - كما يذكر الدكتور شوقي ضيف والدكتور  
علي الحديدي - إلى أسباب قومية ولم تكن ترجع إلى أسباب شخصية .  
وأنا أرى أن الأسباب القومية التي ذكرها الدكتور شوقي والدكتور  
الحديدي - إن تأثر بها الشاعر - تجعله يميل إلى الثورة والعنف والقول في

المجاء وإثارة المشاعر القومية ضد الحاكّم وحاشيته - وخاصة إذا كان الشاعر من طراز البارودي الوطني الفارس - لا إلى الانسواء والعزلة وإنشاد الشعر في الزهد .

بجانب هذا فإننا ألاحظ أن إكتثار البارودي من شعر الزهد حدث بعد أن توفيت زوجته في حوالي عام ١٨٨٩ م وبعد أن تزوج بعد وفاتها بابتنة وقيقه في سرنديب يعقوب سامي وانتقل بها إلى مدينة " كندى " في وسط جزيرة سرنديب؛ إذ " نلاحظ منذ إقامته بهذه المدينة تحولاً يحدث في نفسه (وفي شعره ) - إذ أخذ يتجه إلى ربه يريد أن يلوذ بكنفهِ ؛ فقد تكاثرت عليه الفتن والخطوب ، وتكسرت النصال تلو النصال مما جعله يزهد في الحياة " (١) . ومنذ هذا التاريخ نراه يكثر من إنشاد شعر الزهد يعلن فيه توبته ورجوعه إلى الله - سبحانه وتعالى - وإعراضه عن الحياة ومناعها الفاني . وأنا أقول إنه منذ هذا التاريخ بدأ البارودي يكثر من إنشاد شعر الزهد والشعر الديني وإن كان قد أنشد بعض أشعار الزهد قبل الفترة التي نفي فيها . وأنا في ذلك أتفق مع الدكتور علي الحديدي في قوله : (٢) " ولا ندعي أن محنة النفي هي التي وجهت البارودي هذه الوجهة الدينية أو سارت به في تيار الزهد . فشعر الزهد ظهر في شباب

١ - البارودي والد الشعر الحديث - شوقي خليف ٩٣ .

٢ - محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ٣١٢ .

البارودي كما ظهر في شيوخه وقال فيه قبل النبي كما قال بعده . غير أن النبي غي هذا الاتجاه وقواه عنده " .

وهذا كله ما يؤيد صدق البارودي في شعره في الزهد . وأنه كان يعبر فيه عن إحساس صادق وشعور حقيقي ولم يكن شعره هذا نتيجة تقليد أو مجازاة لغيره من الشعراء السابقين .

إن أهم ما يتسم به شعر البارودي بصفة عامة هو صدق التجريبية الشعرية حتى " يرى الدارس في شعر البارودي ترجمان ذاته وصورة حياته وصدى خواخ نفسه فلا يجد مندوحة من تقرير أنه أمام شاعر صادق مطبوع " .<sup>(١)</sup>

وقد قرر ذلك أيضا الدكتور شوقي حنيف في مقدمة كتابه عن البارودي فقال : " ومن أهم ما يروع قارئه الصدق في تجربته الشعرية، وحقا كان ينع في استخدام العناصر الشعرية التقليدية غير أنه إمعان الرمز لا إمعان الجمود والتقليد السقيم . إمعان يزدوج فيه القدم والجديد والماضي والحاضر ليتوهج الشعر توهجا يزيد جمالا وروعة ويسند الصدق عنده براعة تصويره للمشاهد الحسية والمعنوية " .

١ - في الأدب العربي المعاصر - القسم الثاني - د . إبراهيم عزمين ص ١٥٠ .

٢ - البارودي رائد الشعر الحديث ص ٧ .

ويقول في موضع آخر مؤكداً المعنى ذاته <sup>(١)</sup> : " وشعر البارودي... صورة صادقة لحياته وقومه وبينته المصرية وكل ما ألم به من بيئات . وهو يروى هذا الصدق الذي لا يشوبه تمويه . وهو صدق استيعب في قصيدته أن تكون تجربة فنية أحسها الشاعر ومألت جنبات قلبه . وهي تجربة لا تزال أحياناً تتولد في نفسه متلاحقة بيتاً من وراء بيت حتى تتم القصيدة صورة لنفسه ومشاعره " . <sup>(٢)</sup> وهذا الكلام مع ما سبق من دوافع قوله في الزهد يجعلني أحكم على شعر البارودي في الزهد بالصدق والواقعية في كثير منه . وما قد نراه في ديوان البارودي من بعض مظاهر التناقض بين أقواله من خلال قصائده في الأغراض الشعرية المختلفة لا ينبغي أن يدفعنا إلى إصدار حكم على البارودي تنهيه فيه بضعف العقيدة أو الإيمان بالله . وإنما يجب أن نعطي الرجل حقه من الإنصاف والحيدة في الحكم عليه . فالبارودي في الشطر الأول من حياته كان مولعاً بالدنيا طامحاً لها مقيلاً عليها مثل غيره من رفاقه أو ممن هو في درجته الاجتماعية والثقافية . وهذا شيء طبيعي ولا نستطيع أن ننكره عليه . ولكنه بعد ذلك تاب وأناب وزهد في الدنيا وزخرفها . والإسلام لم يطلب من المسلم أن يقف

١ - المرجع السابق ١٨٧ .

٢ - انظر في ذلك أيضاً كتاب : قصول في الأدب الحديث والمقدّم د . / يوسف عز الدين - دار العلوم للطباعة والنشر - ١٩٨٢ م ص ٦٨ / ٦٩ .

من الدنيا موقف الرفض أو السلب على طول الخط . بل طلب من المسلم أن يأخذ منها بنصيب وأن يعمل في نفس الوقت من أجل الآخرة . فالؤمن الصحيح هو الذي يجمع بين خيري الدنيا والآخرة . فيعمل لدنيائه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخريته كأنه سيموت غداً كما ورد في الأثر . فمن الإنصاف أن نقول : إن البارودي " كغيره من كثير من الشعراء الذين ربطوا بين أمور الدنيا والدين فأخذوا من الأولى بنصيب ، وأعطوا الثاني حقه الكافي من الإيمان والعمل الصالح " .<sup>(١)</sup>

فالبارودي كان صادقاً في زهده كما كان صادقاً في غزله وجرماته وفي غيرهما من أغراض شعره الأخرى .

ومن أدلة صدق البارودي في زهده هجره لملذاته في الشطر الثاني من حياته وزهده عما في أيدي الناس أو طلب العون منهم . فهو أي النفس لا يذبح لأحد غير الله - تعالى - كما أشار إلى ذلك في قصيدة له قالها وهو في منفاه يتحدث فيها عن ظلم حكام مصر في تلك الفترة وكيف سارت الأمور حتى أدت به إلى النفي والبعاد عن الأهل والوطن :

فما أنا ممن تقبل الضيم نفسه      ويرضى بما يرضى به كل مائق  
إذا المرء لم ينهض لنا فيه محمده      قضى وهو كل في صدور العوائق  
وأى حياة لامرئ إن تنكرت      له الحال لم يعقد مسيور المناق

١ - شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة - د ، علي نجيب عطوى ص ٢٤١ .

فما قدّسات العزّ إلا لمساجدٍ إذا هم جئى عزّمته كل غاسقٍ  
يقول أناس إنني لست خالعاً وتلك هناء لم تكن من خالقي  
ولكني لساويت بالعدل طالبا رضا الله واستنهضت أهل الخلق<sup>(١)</sup>  
ويقول في قصيدة أخرى له في سرديب :<sup>(٢)</sup>

غيث عما يهين النفس من عرضٍ فما عليّ لحي في الورى من  
إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة - والتي قالها في الشطر الثاني من  
حياته - يعبر بها عن عزّة نفسه وكبريائه وعن كرهه للحياة واعتصامه بالله  
عز وجل.

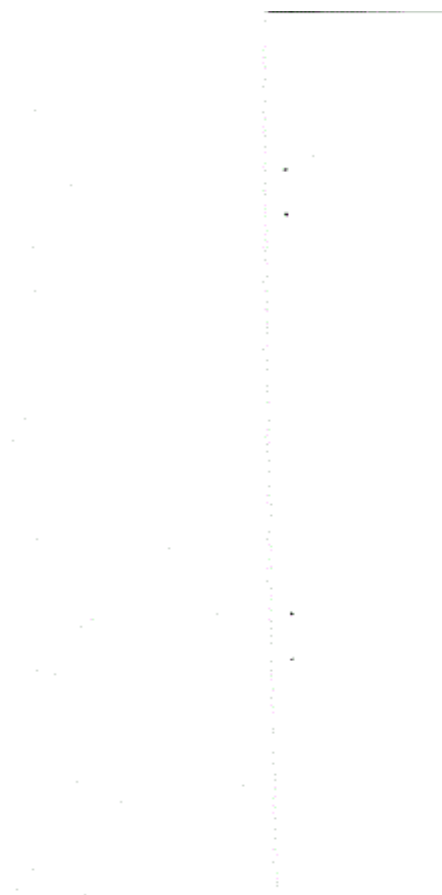
وخلاصة القول في هذه المسألة هي أنني أميل إلى الحكم بصدق  
البارودي في شعره في الزهد وخاصة ما قاله منه في الفترة الأخيرة من  
حياته . تلك الفترة التي توالى عليه فيها الأحداث والمصائب . مما جعله  
يغير من نظراته إلى الحياة ويقف منها موقف الكاره لها الزاهد في متاعها  
وزخرفها ويعبر عن نظراته إليها وعن كرهه لها بهذه الأشعار المصححة .  
وقد يقلل من صفة الصديق الفنى في شعر الزهد عند البارودي جسوّه إلى  
ما يسمى بلزوم ما لا يلزم في بعض قصائده في هذا الباب . ولكن ذلك

١ - الديوان ٣٨٩ .

٢ - الديوان ٥٥٥ .

قد أتى به الياورودي في بعض القصائد فقط ليدلل به على مقدرته الفتيية  
وقدرته على مثل ما أتى به بعض كبار الشعراء العرب دون أن تؤثر على  
درجة صدقه في عاطفته أو واقعية تجربته .





### الفصل الثالث

#### الظواهر الفنية في شعر الزهد عند البارودي

برزت في شعر الزهد عند البارودي عدة ظواهر فنية تميز بها عن شعره في الموضوعات الأخرى ، وهذا ما يلاحظه المتأمل في شعر الزهد عامة ؛ إذ أن لخصوصية أفكاره ومعانيه أثر في الطريقة التي يتناول بها الشاعر هذه الأفكار والمعاني . وإن وجدت بعض هذه السمات والظواهر الفنية في موضوعات الشعر الأخرى إلا أنها تكون ذات طبيعة خاصة في شعر الزهد تختلف عما هي عليه في غيره .

وهذه أهم الظواهر الفنية وسمات كل منها في شعر الزهد عند البارودي :

##### أ - التأثر بالقرآن الكريم :

تأتي ظاهرة تأثر البارودي بالقرآن الكريم معنى وأسلوباً ، والافتقار من معانيه وألفاظه في مقدمة الظواهر البارزة في شعر الزهد عند البارودي . فقد اضمحلت هذه الظاهر في كثير من قصائده ومقطوعاته سواء في الجانب العقدي، أو فيما يتعلق بالتأمل في ملكوت السموات والأرض ، أو فيما يتصل بالنصح والتوجيه .

والناتر بالقرآن الكريم والقياس بعض ألفاظه ومعانيه يتناسب تماماً مع فن الزهد وما يتناوله من معاني ، فأفكار شعر الزهد ومعانيه يتكئ فيها الشاعر على ما ورد في القرآن الكريم من شرائع وتوجيهات . ولذا كان من الطبيعي أن يتأثر البارودي بآيات القرآن الكريم التي تتناول حقيقة الحياة والموت . وتفكير المسلم من التعلق الشديد بالحياة الدنيا ، وحنه على العمل لما بعد الموت ، ومصير الإنسان بعده ، والتعريف باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب ، ولواب وعقاب ، وجنة ونار . ثم بما فيها من حث على التخلص بالأخلاق الفاضلة ، والتفكير من الرذائل والموبقات . إلى غير ذلك مما تردد في شعر الزهد عند البارودي . ولم تقتصر علاقة شعر البارودي في الزهد بالقرآن الكريم عند حد التأثير ، وإنما تجده يقتبس الكثير من ألفاظ القرآن الكريم وعباراته ومعانيه . وقد سرزت هذه الظاهرة في مثل قول البارودي <sup>(١)</sup> :

ولا تلتصق في غير مولاك هادياً إذا الله لم يهد العباد فمن يهدي ؟

فالله وحده هو الذي يهدي بالعباد أن يلجأ إليه يلتصق الهداية منه ، فهو وحده بيده النفع والضرر ، يهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته . والمعنى في الشطر الثاني مقتبس من معنى قوله - تعالى - ﴿ مَنْ

يهدي الله فهو المهتدي ، ومن يضلل قلن تجد له ولها مرشدا ﴿٢١﴾ .

- وفي حديث البارودي عن قدرة الله سبحانه وتعالى - في تسخير الشمس والقمر وجريان كل منهما بحسبان ، ثم في إرسال الرياح التي تنير سحابا يرسل الغيث فتحيا به الأرض بعد موتها . يقول البارودي :<sup>(٢١)</sup>  
وقدّر الشمس تجري في منازلها      والنجم والقمر الساري بحسبان  
وأرسل الغيث إرسالاً برحمته      وأبنت الأرض من حبّ ورحمان

ولقد البارودي هنا متأثراً بحديث القرآن الكريم عن هذه المعاني ومقتضاها العديد من ألفاظه في التعبير عنها . في البيت الأول نلاحظ أنه شديد التأثر بقوله - تعالى - : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾<sup>(٢٢)</sup> ويقول - تعالى - ﴿ والشمس والقمر بحسبان ﴾<sup>(٢٣)</sup> وكان في البيت الثاني متأثراً بمثل قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾<sup>(٢٤)</sup> ويقول - تعالى - ﴿ وأحب ذو العصف

١ - الآية رقم ١٧ من سورة الكهف .

٢ - ديوان البارودي ٥٨٥ .

٣ - الأبيات ٢٨ ، ٢٩ من سورة يس .

٤ - الآية رقم ٥ من سورة الرحمن .

٥ - من الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف .

والرجحان» <sup>(١)</sup> . كما كان البارودي شديد التأثر بالقرآن الكريم في حثه على التقوى والتخوف من اليوم الآخر في قوله : <sup>(٢)</sup>

يا أيها الناس اتقوا ربكم واحشوا عذاب الله والآخرة

فهذا البيت يكاد يكون نظماً لقوله - تعالى - : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واحشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ..... ﴾ <sup>(٣)</sup>

- وفي قول البارودي عن معنى مجازاة الإنسان في الآخرة بما قدمت يده في الدنيا إن خيراً فخير وإن شراً فشر : <sup>(٤)</sup>

كن كما شئت من رشادٍ وغيٍّ كلُّ حسي بما جناه رهيئ

نجدته متأثراً في الشطر الثاني بقوله - تعالى - : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ <sup>(٥)</sup> . أما الشطر الأول فالعنى فيه مستمد من مثل قوله -

تعالى - : ﴿ ولعل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ <sup>(٦)</sup>

وتبدو ظاهرة التأثر بالقرآن الكريم أيضاً في قول البارودي : <sup>(٧)</sup>

١ - الآية رقم ١٢ من سورة الرحمن .

٢ - ديوان البارودي ٢٦٤ .

٣ - من الآية رقم ٢٣ من سورة لقمان .

٤ - ديوان البارودي ٥٨٧ .

٥ - الآية ٣٨ من سورة المدثر .

٦ - من الآية رقم ٢٩ من سورة الكهف .

٧ - ديوان البارودي ٨٤ .

كُلُّ حَيٍّ سَيَمُوتُ      لَيْسَ فِي الدُّنْيَا قِيَامٌ  
فقد تأثر فيه البارودي بمثل قوله - تعالى - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ  
المَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أجُورَكم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ  
فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾<sup>(١)</sup>

وغير ذلك كثير من الأبيات التي يتضح فيها تأثر البارودي بالقرآن  
الكريم وانقياسه من ألفاظه . وكان لتأثر الشاعر بالقرآن الكريم معنى  
ولفظا وأسلوبا أثره في اختفاء الألفاظ الوحشية والمستهجنة أو المتبدلة ،  
مع تميز الأسلوب في الوقت نفسه بالقوة والوضوح .

ب - بناء القصيدة وخلوها من المقدمة التقليدية :

والظاهرة الثانية في شعر الزهد عند البارودي هي عدم استهلال  
القصيدة بالمقدمة الطللية أو الغزلية . شأنه في ذلك شأن شعراء الزهد في  
العصور الأدبية المختلفة . حيث نجد القصيدة أو المقطوعة تسدور حول  
معاني الزهد من أوجها حتى تنتهاها . وهكذا نجد عند البارودي ؛ فعلى  
الرغم من تمسك البارودي في شعره بالأسلوب التقليدي في بناء القصيدة  
إلا أنه تخلّى عن هذا الأسلوب في بناء قصيدة الأسلوب ، فلم يجهد لمعاته  
فيها بمقدمات طللية أو غزلية أو غيرها كما كان يفعل في كثير من

١ - الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران .

قصائده في الأغراض الأخرى . وقد يرجع ذلك إلى الشغال الشاعر في باب الزهد بتوصيل المعنى إلى ذهن القارئ أو السامع بطريقة مباشرة دون حاجة إلى تهيد أو واسطة . فضلا عن أن كثيرا من شعر الزهد عند البارودي لم يأت في صورة قصائد مستقلة بهذا الغرض . وإنما جاء على صورة مقطوعات قصيرة أو أبيات متنورة في ثنايا قصائده في الموضوعات الأخرى .

وعدم بدء قصيدة الزهد بنوع من المقدمات التقليدية سلوك يتناسب مع معاني الزهد وطريقة تناول الشاعر لهذه المعاني . فالشاعر في قصيدة الزهد يشغله تفكيره في المعنى الدقيق الذي يريد التعبير عنه ويحاول أن يوصله إلى أذهان قارئيه أو سامعيه من أقصر طريق . ويحسب يجعل تفكيرهم كله فيما يتلوه عليهم من معان ولا يشغلون بأى موضوع آخر . فالشعراء في هذا الغرض ليسوا بحاجة إلى الالتزام بالمنهج الفني ، كما أنهم ليسوا في حاجة إلى تزيين أشعارهم وتجويدها بالدرجة التي نجدها عند شعراء المديح . فشاعر الزهد لا ينتظر غنا أو عطاء ولا يريد به تحقيق جاه أو سلطان . ومن ثم لم يجد الشاعر من هؤلاء أنه من المستحسن أن يجمع بين أبيات الزهد وبعض أنواع المقدمات التقليدية . " وقد يكون في المقدمة الطللية رمز لمعنى الحياة والموت يتناسب الأفكار الزهدية . ولكن طبيعة القصيدة الزهدية أن تصل مباشرة إلى العقل والقلب بغير حاجة إلى

وساطة من الرمز أو أى وسيلة أخرى تعوق وصول المعنى بطريقة مباشرة<sup>(١)</sup>. ومن هنا ابتعد شعراء الزهد عن مثل هذه المقدمة ، كما ابتعدوا عن غيرها مما كانت تبثى به القصائد الشعرية في العصور السابقة.

على أننا قد نجد البارودي يأتى ببعض معاني الزهد وأبياته في ثيابا قصائد تدخل تحت موضوعات أخرى غير موضوع الزهد ، ويبدأ هذه القصائد بمقدمة من المقدمات التقليدية . ومن هذه القصائد قصيدته الميمية التى يتذكر فيها أيام شبابه ، والتى قال عنها الأستاذ على عبد المقصود عبد الرحيم شارح ديوان البارودي أنه يعارض بها قصيدة أبى نواس في مدح الأمير محمد بن هارون الرشيد التى مطلعها :

يا دار ما فعلت بك الأيام لم تبق فيك بشاشة تستام

وقد بدأ البارودي قصيدته هذه بقوله<sup>(٢)</sup> :

أسأل الديار عن الخيب وفى الحشا دار له ما هولة ومقام

فقد اشتملت القصيدة على أبيات كثيرة في استرجاع أيام الشباب ومجالستها مع الرفاق وما كان فيها من فو وجو . كما أقصاض فيها في الحديث عن وصف الخمر ومعارفها وأثرها في شاربها . وفى ثيابا القصيدة

١ - شعر الزهد في القرنين الثانى والثالث للهجرة ص ٣٢٣ .

٢ - ديوان البارودي ٤٧٠ .



يتحدث في بعض أبياتاً عن الموت والقضاء وسرعة انقضاء سنوات العمو ، وعن بعض ما حدث للأمم السابقة مما يدخل في باب الزهد .  
كما نجد بعض القصائد في ديوان البارودي ليست خالصة في سبب الزهد ؛ بحيث تأتي مقدمتها في الزهد ، ثم يعدل عن الزهد إلى موضوعات أخرى . ومن ذلك - على سبيل المثال - قصيدته العينية المبدوعة بقوله:<sup>(١)</sup>

مضى أنت عن أحققة الغي نازعٌ      وفي الشيب للنفس الآية نازعٌ ١ ؟  
فهي ليست خالصة في الزهد وإنما فيها الكثير من الأبيات التي يتحدث فيها البارودي عن معانٍ أخرى ، مثل حديثه عن موقفه من بعض عجلاته الذين لا يرضى عن كثير من مواقفهم وتصرفاتهم في الحياة . كما يفخر فيها بكثير من الصفات التي يتباهى باتصافه بها . وقد تفسر هذه الظاهرة بأن البارودي كانت تعن له بعض المعاني الزهدية فيتحدث عنها ثم يستطرد إلى ذكر بعض ما حدث له من بعض عجلاته مما يخالف هذه المعاني الدينية . أو أنه كان يتحدث عن أيام الشباب وما كان فيها من إسراف وهو فجرة إلى الحديث عن سرعة زوال هذه الأيام وما كان فيها ، ومن ثم إلى الحديث عن الدهر وبغائه وسرعة انقضاء أيامه ، ثم عن زوال الأمم والشعوب .

#### جـ - الصور البلاغية :

والظاهرة الثالثة في شعر الزهد عند البارودي هي كثرة استخدامه الألوان البلاغية في شعره في هذا الغرض والاستعانة بها في رسم الصور وتجسيد المعاني حتى تكون قوية التأثير في نفس السامع أو القارئ .  
ومن المسلم به أن للصور البلاغية أثرها في قوة الشعر وما يحمله من أخيلة . فيها يستعين الشاعر على إبراز جمال المعاني وتجسيدها في صور حية جميلة يألفها القارئ والسامع .

وكانت أبرز الألوان البلاغية وجودا في شعر الزهد عند البارودي : التشبيه ، والاستعارة ، وبعض ألوان البديع . وعلى الرغم من كثرة هذه الألوان في شعر الزهد عند البارودي إلا أننا نلاحظ أن وجودها في هذا الباب أقل من وجودها في غير هذا الباب من موضوعات شعر البارودي . وقد يفسر ذلك بانشغال الشاعر بنفسه ، وبما يفكر فيه من أمور الدنيا والآخرة في شعر الزهد ، والذي يصرفه عما قد يشغل به في فنسه من موضوعات الشعر الأخرى كالمديح مثلا ، الذي يهتم فيه الشاعر بإظهار عبقرية الفقيه والاستحواذ على إعجاب ممدوحه ، ولفت نظر النقاد إليه حتى بنيت نفوقه الشعري . فنراه يبذل في مثل هذا الموضوع جهدا غير عادي في اختيار الألفاظ ، وفي صياغة الصور الفنية وفي تنوع أغماطها

واختلاف أشكائها . على حين يكون الشاعر في سباب الزهد مهيموما مشغولا خائفا قلقا يكف عن شطحات الخيال ، وينظر إلى الواقع ، ويعلن عن إقلاعه عن الخطايا ، ويدجأ إلى ربه ويطمع في غفرانه ورحمته . ولذا لا يشغل نفسه كثيرا باستجلاب الصور البلاغية أو بتتبعها والتأنيق في صياغتها ، وإنما يكون اهتمامه الأول بالمعنى وقوته فيحرص على أن يكون المعنى قريبا مصاعا بأبسط تعبير ليصل إلى المتلقي مسن أقصر طريق ، واحجا لدى العامة من الناس ، سريع العلوق بأذهانهم فيستجيبون لما فيه من وعظ وتوجيه .

ومعنى هذا أن الألوان البلاغية في شعر الزهد جسامت في معظم الأحيان بسيطة عفوية . وهذا ما يلحظه قارئ هذا الشعر ، إذ يحس بأن هذه الألوان جاءت متوائمة تماما مع المعنى ، طبيعية لا تكلف فيها لم يسع الشاعر إليها ، مما جعلها تؤدي مهمتها أحسن ما يكون الأداء .

- ومن التشبيهات التي استعان بها البارودي في رسم صورة هذا التشبيه الجميل الذي شبه فيه الشيب الذي بدأ يظهر في شعر رأسه بنور القمر الأبيض يثاق سواد الليل بضوئه . وصور البارودي هذا النور باللسان الذي ينطق بما يحاول أن يكتفه الإنسان من تقادم العمر به

وانتداده نحو الموت . يقول البارودي :<sup>(١)</sup>  
وشبيه كلسان الفجر ناطقة بما طواه عن الإفشاء كتمان  
فالشيب في رأس الشاعر شبه بنور الفجر الذي يضيء الكون  
فيكشف ما حاول إخفاءه ويبرز أثر مرور الزمان وأحداث الدهر على  
جسم الإنسان .  
ومنهذا هذا التشبيه الذي صور فيه الدنيا باخيال الذي يراود بعض  
الناس ولكنه لا حقيقة له . يقول البارودي :<sup>(٢)</sup>  
إنما الدنيا خيال باطل سوف يفوت  
ومن شأن هذه الصورة التي أبرزها التشبيه أن تبعد الإنسان عن  
التعلق بالدنيا وعن الاغترار بها ؛ لأنها كالأخلاق الباطل الذي يتقضى سريعا  
وكانه لم يكن .  
وشبه البارودي الليالي في بيت آخر بالعقارب التي تسير سيرا لئلا  
تحرق حتى لا يدري بها الإنسان فتتمكن من لدغه . كما شبه الدهر  
بالذئب المخادع الغدار ، فقال :<sup>(٣)</sup>  
ألا إنما هذى الليالي عقارب تدب وهذا الدهر ذئب مخادع

١ - ديوان البارودي ٥٨٤ .

٢ - ديوان البارودي ٨٥ .

٣ - ديوان البارودي ٣١٤ .

وتصوير الليالي - عن طريق التشبيه في هذا البيت - بالمقارب ، ثم تصوير الدهر بالذهب المخادع يبرز لنا الليالي والدهر في صورة مقسّزة تؤدي إلى الغرض الذي قصده الشاعر من البيت - وهو القراز من الدنيا وعدم التعلق بها وعدم الحرص على الزيادة من متاعها .

- أما الاستعارة فلها دور كبير في حسن التصوير وإبرازه في صور محسوسة . وجعلها ابن رشيح القيرواني " أفضل الجاز وأول أبواب الديدع . وليس في حلى الشعر أعجب منها . وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها وتولت موضعها " .<sup>(١)</sup> وذكر ألفا هي والتشبيه " يخرجان الأغص إلى الأوضح ، ويقربان البعيد " .<sup>(٢)</sup> ولذلك اعتمد عليها الشعراء في تحسين المعنى وتزيينه وإبراز المعنوي في صورة الخسوس . وقد اعتمد عليها البارودي في شعر الزهد لتحقيق هذا الأثر في كثير من الأحيان .

- ومن الاستعارات الطريفة المعبرة عن الصورة المرادة ما جاء في قول البارودي متحدثاً عن الشيب (٣) :

وشيبة كلسان الفجر ناطقة بما طواه عن الإفشاء كتمان

١ - الصدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - تحقيق : محمد عبي الدين حميد الحبيد - طبعة دار الجبل - بيروت - ط ٤ - ١٩٧٢ م - ٢٦٨ / ١ .

٢ - المرجع السابق ١ / ٢٨٧ .

٣ - ديوان البارودي ٥٨٤ .

ففى كل من شطرى البيت استعارة مكنية أدت كل منهما دورها فى تصوير المعنى وإبرازه : حيث صورت الأولى القجر بنسوره الأبيض بالإنسان الناطق المين . وصورت الثانية الكتان بالإنسان الذى يطسوى بداخله شيئا غير محبوب لا يريد أن يوح به وقد أفصح عنه الشيب بلونه الأبيض .

- ومنها هذه الاستعارة التى صور بها أهمية تقوى الله - سبحانه وتعالى - فى هذه الدنيا فى صورة الغذاء الأفضل للإنسان والذى لا غنى عنه لأى حى . يقول : <sup>(١)</sup>

إنَّما الدنيا خيالٌ	باطلٌ سوف يَفوتُ
ليسَ للإنسان فيها	غيرَ تقوى الله قوتُ

وقد ساهمت الاستعارة فى البيت الثانى فى إبراز أهمية تقوى الله - سبحانه - بالنسبة لكل إنسان عن طريق تصوير التقوى فى صورة القوت الذى هو ضرورى لكل حى . وكان الإنسان البعيد عن تقوى إنسان ميت لا حياة فيه تماما كالإنسان الذى لا يتناول ما يكفيه من قوت .

وإذا كان البارودى فيما سبق قد صور الشعب بالإنسان ذى لسان فصيح ناطق بنذر باقتراب نهاية عمر الإنسان ، مثله مثل ضسوء القجر.

المؤذن بانتها سواد الليل ، وقرب ظهور ضوء الصبح - فإنه يجعله في بيت آخر عنواناً للموت يراه المرء برأسه كلما نظر في المرآة فيقول : <sup>(١)</sup>  
يرى المرء عنوان الموت برأسه ويذهب يلهى نفسه ويصانع

ففى البيت استعارة تصريحية صور بها الشيب برأس الإنسان في صورة عنوان للموت . والذي ينبئ عن اقتراب أجل هذا الإنسان من النهاية كما يدل العنوان على صاحبه . وجعله برأسه ليكون في موضع بارز يعلن الإنسان بوضوح وصراحة عن تولى الزمان والنصرانه عن هذا المرء حتى يرعوى ويعمل لما بعد الموت .

كما يجعل البارودى للمنية بدا تحصد بها الأمم والشعوب فتحيلها إلى غير بعد عيان ووجود ، فيقول : <sup>(٢)</sup>

أمم أخذت إلى الدهر حيناً ثم ضاعت في لجة النسيان  
حصداً يد الموت فصارَتْ خيراً في الوجود بعد عيان

وواضح ما في البيت الثانى من استعارة مكينة صور بها الشاعر مدى سطوة الموت وقوة تأثيره على كل كائن في هذه الحياة .

- أما عن الألوان الذهبية فقد جاءت في شعر الزهد عند البارودى كثيرة ومتنوعة ، ولكنها مع كثرتها جاءت طبيعية غير متكلفة ولا ممقونة ،

١ - ديوان البارودى ٣١٣ .

٢ - ديوان البارودى ٥٧٤ .

ولذا كان لها دورها في تزيين المعنى وتحسينه .

- ويأتي الطباق في مقدمة الألوان اليدعية التي اهتمم البارودي بإيرادها في شعر الزهد . واستعان به في عقد المقارنة بين الكثير من المعاني المتضادة التي حاول البارودي إبرازها في شعره من مثل : الدنيا والآخرة ، وأخياة والموت ، والتواب والعقاب ، والنفع والضر ، والخير والشر ، والسعادة والشقاء .... وغيرها مما يكثر حديث الزاهد عنه .

ومن ذلك ما جاء في قول البارودي ملخصاً حقيقة الدهر :<sup>(٢)</sup>

والدهر أيامٌ تبيدُ صروفها وتشيّدُ فهي هوامٌ ويواف

وأفاد الطباق عدم استقرار أيام الدهر ، وتقلبها بين تشييد وإسادة وهدم وبناء .

ومنها تلك الطباقات المتوالية التي صور البارودي من خلالها تقلب

الدنيا وعدم بقائها على حال واحدة فقال :<sup>(٣)</sup>

ولقد تبسّتُ الأمورُ بغيرها وأنسىَ عيسىَ النقصَ والإسرامُ  
فإذا السكونُ تحركَ وإذا الخمسُ د تلهبُ وإذا السكونُ كسّامُ

" ولعل السر في جمال الطباق - فضلاً عن تبيينه المعنى في النقص -

١ - ديوان البارودي ٥٨٤ .

٢ - ديوان البارودي ٤٧٣ .



لأن الضد أقرب عطوراً بالبال إذا ذكر ضده -- أنه يصف الشيء  
المتحدث عنه إزاء الضدين المتقابلين \* <sup>(١)</sup> . كما أن للطباق الأثر الكبير  
في إثارة الانفعالات المختلفة في نفس القارئ أو السامع لإزاء الأمور  
المتناقضة \* <sup>(٢)</sup> . وقد ظهر هذا الأثر واضحاً في الأبيات السابقة . كما  
يتضح هذا الأثر من الطباق في قول البارودي عن الموت <sup>(٣)</sup> :

ليس يُبقي على وليدٍ وكهلٍ ولا سوقةٍ ولا سلطانٍ

فقد صور الطباق في هذا البيت معنى قضاء الموت على كل إنسان  
وعدم تفرقه بين صغير وكبير ، ولا بين سوقة سلطان وأبان أن الكل أمام  
الموت سواء .

- كما كثرت المقابلة في شعر الزهد عند البارودي واستعان بها  
على تجسيد الاختلاف بين أمور اليوم والأمس ، وبين أحوال الدنيا  
والآخرة وما يحدث في كل منها من أمور متقابلة ينبغي على الإنسان أن  
يتأملها جيداً حتى يتحقق له الفوز في الدارين .

ومن أمثلة المقابلة في شعر الزهد عند البارودي قوله : <sup>(٤)</sup>

١ - أسس النقد الأدبي عند العرب - د / أحمد أحمد بدوي - دار فضاء مصر - ١٩٩٤  
م - ص ٤٤٧ .

٢ - المرجع السابق ٤٤٧ .

٣ - ديوان البارودي ٥٧٤ .

٤ - ديوان البارودي ٤٧٣ .

لا تركسَنَ إلى الزمانِ فرما      خدعتْ عيَلُهُ الفؤادَ العاقلا  
واصيرَ على ما كانَ منه فكلما      ذهبَ الغداةُ أبى العشيَ قافلا

وقد صورت المقابلة هنا بين ( ذهب الغداة ) و ( أبى العشي قافلا )  
سرعة تغير الزمان وسرعة تقلبه بأهله وعدم بقاءه على حال واحدة . فمما  
بين الغداة والعشي قد يحدث ما لا يتوقعه الإنسان . ولذا فيجدر بالمسلم  
ألا يركن إليه ولا يتخذ مآباً وسكونه الذي لا يدوم .

ومن أمثلة المقابلة أيضا قول البارودي : <sup>(١)</sup>

فالدهرُ كالدولابِ يلفُضُ عاليًا      من غير ما قصدٍ ويرفعُ سافلا

وقد جاءت المقابلة هنا بين ( يلفُضُ عاليًا ) و ( يرفعُ سافلا )  
لتوضيح التشبيه في قوله ( فالدهر كالدولاب ) وتوكيده ؛ فهي تشرح  
وتبين صدقه وواقعته في تصوير تقلب الدهر وعدم استقراره على حال .  
ومنها أيضا قول البارودي عن حقيقة كثير من الناس في هذه  
الدنيا: <sup>(٢)</sup>

حبُّ الحياةِ وبغضُ الموتِ أودَّهم      حينَ الطباعِ وتصديقُ الأباطيلِ

فقد ساعدت المقابلة هنا في الوقوف على سر ابتعاد كثير من الناس

١ - ديوان البارودي ٤٤٤ .

٢ - ديوان البارودي ٤٤٤ .

عن الوفاء والصدق والأمانة ويكمن في حبهم للحياة وبغضهم للموت .

وتكمن قيمة المقابلة - كما في الطباق - في الجمع بين أمور متضادة في مقام واحد فيتمكن السامع أو القارئ من تصورها معا في آن واحد .

- ومن الألوان البديعية التي وردت في شعر الزهد عند البارودي :  
الجناس بتوحيه التام والناقص . " ولعل السر في تأثير الجناس ما فيه من إيهام النفس أن الكلمة المكررة ذات معنى واحد ؛ فإذا أمعن المرء فيها النظر رأى لكلمتين معنيين مختلفين ؛ فيدفع ذلك إلى الإعجاب بالشاعر الذي اهتدى إلى هذا الاستخدام " (١) .

ومن الجناس في شعر البارودي الزهدي ما جاء في قوله " (٢) .

لا الباز ينجو من الحمام ولا يخلص منه الحمام والحرب

فالحمام - يكسر الحاء - : الموت ، ويفتحها هو الطائر المعروف .

وقد جمع بينهما ليبيد أن الموت يقضي على كل حي في هذه الحياة .

ومن الجناس الناقص ما جاء في قول البارودي في الحديث عن صفة

من صفات الصديق الحق الذي ينبغي للمؤمن أن يتمسك بصدائقه (٣) :

١ - أسس النقد الأدبي عند العرب ٤٧٥ .

٢ - ديوان البارودي ٧٧ .

٣ - ديوان البارودي ٤٤٦ .

إن رايك الدهر لم تفشل عزائمهُ أو نابك السهم لم تقهر وسائلهُ  
والجناس في البيت بين ( رايك ونابك ) . والجمع بينهما أفاد صدق  
هذا الصديق في صحبته لك في كلتا الحالين .

ومنه قول البارودي في حديثه عن بعض من أبادهم الدهر<sup>(١)</sup> :  
بل أين أصحاب الوقوف دُ وأين أرباب الجلاء ؟  
الطاعمون الطاعنون القاتلون بكل نادى  
والجناس بين ( الطاعمون - الطاعنون ) في البيت الثاني . والجمع  
بينهما يفيد زيادة وصف هؤلاء القوم بالقوة والعظمة ، ومع ذلك لم  
يستطيعوا الوقوف أمام قوة الموت وجبروته .

- ومن الألوان البديعية التي وردت في شعر الزهد عند البارودي :  
رد العجز على الصدر . وقد عرفه ابن رشيق فقال : " هو أن يرد أعجاز  
الكلام على صدره فيدل بعضه على بعض ، ويسهل استخراج قسواف  
الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة"<sup>(٢)</sup> . وقد ورد في قول البارودي  
في حديثه عن الزمان وغدره<sup>(٣)</sup> :

١ - ديوان البارودي ١٨٨ .

٢ - المصنعة - ٣ / ٢ .

٣ - ديوان البارودي ٤٤٣ .

كفّل الشقاء لمن ألاح يرمعه وكفى ابن آدم بالمصاب كافلا  
وتكمن قيمة هذا الحسن بأنه — كما يقول ابن رشيق : — " يكسب  
البيت الذي يكون فيه ألفة ، ويكسوه رونقا ودياجة ، ويزيده مائسة  
وطلاوة " (١)

إلى غير ذلك من الألوان البديعة التي وردت في شعر الزهد عند  
البارودي ، والتي زين بها أسلوبه وأوضح بها معانيه . " وإذا كان النقاد  
يرون في هذه الحسنات البديعية جمالا موسيقيا تطرب له الأذن فإنهم يرون  
— إلا نقاد الصنعة والزعرف — أن تكون هذه الحسنات كالحلى ، يسوق  
منها القليل ، يأتي في الكلام إذا استدعاه المعنى . لا أن يقتصر ويؤتى به  
موضوعا في غير مكانه . فإن فعل الشاعر ذلك كان متكلفا لا بمحمد  
شعره " (٢)

وقد نجح البارودي ووفق في استخدامه هذه الأسوان الاستخدام  
الأمثل فجاءت في شعره طبيعية غير متكلفة ، فاستطاع من خلالها أن يحقق  
الهدف منها وهو تحسين المعنى وتزيينه ، وإضفاء لون جميل من الموسيقى  
على أبياته تزيد في قوة التأثير في متلقي هذا الشعر فيكون أسرع في

١ - العدد - ٢ / ٣ .

٢ - أسس النقد الأدبي عند العرب ٤٧٦ .

استجابته لها . وهذا لأن هذه الخسرات — كما ذكر النقّاد — " حلية يروق الأذن منها ما جاء في مكانه ، وكان قليلا لا يخفى به جلال المعنى ، ولا يذهب بهدف الشاعر ، بل يخدم هذا الهدف ، ويزيد جمال المعنى ؛ وذلك حين يأتي به المعنى ، ويتطلبه إيضاح الفكرة " (١) . وهذا هو ما رأيناه في الخسرات البيعية في شعر الزهد عند البارودي .

#### د — لغة الزهد :

والظاهرة الرابعة من الظواهر الفنية في شعر الزهد عند البارودي تتمثل فيما يلاحظه قارئ هذا الشعر من سهولة ألفاظه وبساطة لغته وبعدها عن الغرابة أو الثقل ، وهذه سمة من سمات شعر الزهد في كل العصور الأدبية .

فالزهد — كما يقول الشاعر العباسي أبو العتاهية : " ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب . هو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة . وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه " (٢) .

ومعنى ذلك أن لغة الزهد ينبغي أن تتسم بسمات خاصة فتختلف

١ - المرجع السابق ٤٧٦ .

٢ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - نشر دار الثقافة - بيروت - ١٩٥٥ م - ١ / ٧٢ .

عن لغة غيره من الفنون الشعرية . ولقد حرص شعراء الزهد على توحى السهولة والوضوح في ألفاظهم وأساليبهم ، فجاءت لغتهم ببساطة عن التكلف والتعقيد ، خالية من الوحشي والغريب ، لأنهم في هذا الشعر يهدفون إلى دعوة الناس إلى قيمة دينية أو خلقية . وغاية قصدهم مواجهة اغيوت والهلوس والفساد في المجتمع ، وذلك عن طريق تزيين الناس في الدنيا ، وترغيبهم في الآخرة ، والدعوة إلى التحلى بسالخالق والآداب الإسلامية في أسلوب سهل يفهمه عامة الناس . يقول الدكتور على نجيب عطوى في ذلك :

" فالشاعر في قصيدته الزهدية ..... لا يريد بها مخاطبة الملوك وأصحاب الجاه والسلطان ، فهؤلاء مشغولون عنه بأمور دنياهم . ولهذا فهم لن يكتفوا له ولا لقصائده ، ولن يجد منهم أى تشجيع أو عون . بل هو يريد مخاطبة العامة من الناس — أى الطبقة الشعبية . من هنا كان عليه أن يختار اللغة القريبة إلى أفهامهم .. وذلك لينتج من التأثير على نفوسهم وقلوبهم ، ويثبت بينهم رسالته التى يؤمن بها ..... "

ومن هنا نجد أن لغة شعر الزهد تقتضى صفات معينة لكى تصل إلى درجة قوية من التأثير في النفس والدخول إلى العقل والقلب بصورة مباشرة . وأولى هذه الصفات البساطة المتناهية ، والبعد عن الإغراب في

الألفاظ وصعوبتها وتقلها على الأسجاع ، وعدم استساغة الذهن للكثير منها بطريق مباشر " (١) .

فأهم وظيفة للفظ عند شعراء الزهد هو التعبير عن موقفهم ، وتوضيح أفكارهم ووعظ الآخرين ونصيحهم وتوجيههم ، وإقناعهم بوجهتهم الفكرية في صورة جمالية ، لأنهم لا يتكسبون بشعرهم ، ولا يهدفون من ورائه تحقيق ثروة أو جاه . ومن أجل ذلك رأوا أنه لا يصلح في لغة الزهد غير ألفاظ لها سمات خاصة تساعد الشاعر الزاهد في التعبير بسهولة عن أفكاره .

وقد اتسمت لغة شعر الزهد عند البارودي بهذه السمات كلها . فالنظرة السريعة في هذا الشعر تبين مدى ما اتسمت به ألفاظ هذا الشعر عنده من بساطة وسهولة . مع انصاف لغة الشعر عنده في الموضوعات الأخرى بجزالة اللفظ والقوة الفنية في تشكيل الصورة أو في بناء العبارة . إلا أننا نلاحظ تحليده عن كثير من هذه السمات في شعر الزهد ، فكان فيه يلجأ إلى التعبير المألوف بالألفاظ سهلة . " واعتماد البارودي على الكلمات السهلة جعله يختار منها الموحية المركزة ، وكل كلمة توحى بأكثر من معنى ويتذكر فيها أكثر من جملة . وبذلك يفهم القارئ شعر البارودي



بسهولة لوجوح المعنى وسلامة كل فعل يستعمله ، أو لفظة يضعها في البيت <sup>(١)</sup> . كما أننا لا نقرأ في هذا الشعر عند البارودي كلمة غريبة على الأصابع ، ولا متوغرة وحشية على الألفهام إلا نادراً ، مما يجعل معانيه قادرة على التغلغل إلى أعماق النفوس والتأثير القوي عليها . وكأنه يستجيب في ذلك إلى ما طالب به أبو العتاهية شعراء الزهد ، وأن تكون السابق ، حينما أكد على أهمية سهولة الألفاظ في شعر الزهد ، وأن تكون مما لا تخفى على جمهور الناس ، لأن هذا الشعر ليس من مذاهب الملوك ، وإنما من مذاهب العامة ، وأعجب الأشياء إلى هؤلاء الناس هو ما فهموه واستقر في أذهانهم . اقرأ معي قول البارودي <sup>(٢)</sup> :

فصَّبَ إلى الله قِبَلْ مَدْمَعَةً	تَكَثَّرَ فِيهَا الْمَسُومُ وَالْكُتُوبُ
واعتَدَ على الخير قاتلوق مَنْ	هَذَبَهُ الإعياءُ والسُّدُوبُ
وَجَدَ بما قد حوتْ يَدَاكَ قِيسَا	يَنْفِخُ ثَمَّ الدَّجِينَ وَالْعَرَبُ
فإن للدهرِ لو فطنتْ له	قوماً من الموتِ سهمها عَرَبُ

أو قوله <sup>(٣)</sup> :

وللموت أسباب ينال بها الفسق	فمن بات في نجد كمن بات في وهج
وكل امرئ في الناس لائق جوارحه	فسيان رب العير والتسرس السهد

١ - فصول في الأدب الحديث والفرد - د / يوسف عز الدين ص ٧٧ .

٢ - ديوان البارودي ٧٩ .

٣ - ديوان البارودي ١٧٧ .

ولولا ارتياح النفس من صولة الردى لما عف عن طيب النعيم أحو زهد  
قدح ما مضى وصبر على حكمة القصد فليس ينال المرء ما فسدت بالجهد  
وعند قراءتنا لهذه الأبيات نجد أن طابع السهولة يغلب عليها وعلى  
الفاظها . حتى إننا لا نجد فيها لفظا غريبا يحتاج في فهمه إلى الرجوع إلى  
معاجم اللغة العربية . بل جميعها كلمات مأثوفة معروفة للسامع . ولذلك  
يسهل حفظها ويسرع علوقها بالأذان . ومثلها كثير في شعر البارودي في  
هذا الباب تنسم كلها بسهولة الألفاظ وبساطتها وبعدها عن الغرابة  
والتعقير .

ومن الألفاظ التي يشوبها بعض الغموض — وهي قليلة للغاية في  
شعر البارودي — لفظة ( تبوخ ) بمعنى ( تسكن ) في قوله <sup>(١)</sup> :  
تبوخ بها الأنفاس وهي تسالم وتغفو بها الأبدان وهي صعد  
والضمير في ( بها ) يعود على الدنيا التي ورد ذكرها في البيت  
السابق على هذا البيت . ومنها لفظة ( جاحرة ) بمعنى ( كويته الرائحة )  
في قوله <sup>(٢)</sup> :

يمشي القنق تيهاً وفي ثوبه من معطفيه جفّة جاحرة

١ - ديوان البارودي ١٨٩ .

٢ - ديوان البارودي ٢٦٣ .

ولفظه ( قائف ) - بمعنى متبع للأثر عارف بها - في قوله :<sup>(١)</sup>  
لا تحسن الحس يدرك ما نأى فما كل حين قائف الحس يصدق  
\* وسهولة الألفاظ المقررة وبعدها عن الغرابة تقودنا إلى ظاهرة  
أخرى في لغة الشعر هي بساطة التركيب اللغوي . فسهولة الألفاظ لا  
تكفي وحدها للتأثير في النفس والوصول مباشرة إلى المعنى . ولكن  
صياغتها البسيطة البعيدة عن التعقيد بالمعاطلة والتقديم والتأخير وطول  
الجمل الاعتراضية يجعل التعبير عن المعنى يصل إلى القلب من أقرب  
سبيل<sup>(٢)</sup>.

وقد جاءت تراكيب شعر البارودي في فن الزهد غاية في البساطة  
والسهولة مما يجعل معانيه واضحة تصل إلى العقول والفلسوف في أقصر  
وقت . وهذا يتضح من قراءتنا لأي قصيدة أو مقطوعة زهدية في ديوان  
البارودي .

\* كما اتسمت لغة الزهد عند البارودي في بعض الأحيان بالرقية  
وعدم الجزالة التي يصوغ بها شعره في القنون الأخرى . ومن ذلك  
قوله:<sup>(٣)</sup>

١ - الديوان ٣٨٦ .

٢ - شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة ٣٢٦ .

٣ - الديوان ١٨٨ .

لا عيش إلا للفساد      فاحب حياتك أو فساد  
واغسل بنفسك أو لجسد      كل الأمور إلى فساد  
أمن الألى شقوا البحو      وشيدوا ذات العماد  
ملكوا التهانم والتجا      نيد والجواضر واليوادي

ومن الملاحظ أيضا أن البارودي كان ينتخب معظم مفردات وتراكيب شعره في الزهد من القاموس الإسلامي ، فكثرت في شعره ألفاظ الجنة والنار ، الموت والقبر ، والتقوى والفساد ، والتعيم والسعادة ، والثواب والعقاب ، والفناء والمصير ، والحساب ، والدار الآخرة ، والحياة الدنيا ، والتوبة والاستغفار ، والندم والذنب ، والتسبيح ، والخير والهداية ، والصبر والقناعة ، والصدق والحق إلى آخر تلك الألفاظ التي يشع منها نور الإسلام وروحانيته ، والتي كان يختار منها ما يلائم المعنى الذي يتحدث عنه ، ويتناسب مع موضوع الزهد الذي يقصد إلى التعبير عنه .

واتصاف لغة الزهد عند البارودي بهذه السمات كلها جعلها لغة مألوفة لدى الناس قريبة من نفوس القراء والمتلقين لهذا الشعر .

- هذا وقد كان البارودي يلجأ إلى وسائل متعددة لتحقيق الألفة

بين القارئ ولغة شعره في هذا الباب . ومن هذه الوسائل :

١ - النداء الذى يساعد الشاعر على إخراج ما فى داخله من  
أحاسيس ومشاعر غير متناهية ، كما فى قوله فى الوعد : <sup>(١)</sup>  
يا أيها السَّوْفُ المدلُّ بنفسه كسفينة فى بحر ما حُرِّ  
أَتَظُنُّ أَنَّ الْقَهْرَ تَوْبٌ مَعْلَمٌ تَرَهُوْ بِلِسَتِهِ وَقَدَّرَ بِأَحْرَهُ  
وكقوله فى مناجاة ربه : <sup>(٢)</sup>

يَا رَبَّ إِنَّكَ ذُو مَسْنٍ وَمَغْفِرَةٍ فَاسْتَرْ بِعَفْوِكَ زَلَاتِي وَعَصِيَانِي  
وَلَا تَكِلْنِي إِلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلِي فَإِنَّهُ سَبَبٌ يَفْضِي خُرْمَانِي

فالنداء فى مثل هذه الأبيات يساعد الشاعر على إخراج كل ما  
يخس به تجاه المُنَادَى عن طريق مد الصوت بحرف النداء ( يـ ) الذى  
حرص الشاعر على استخدامه دون غيره من حروف المد .

٢ - ومن الوسائل التى يلجأ إليها البارودى لتحقيق هذه الألفسة  
استخدام أسلوب الاستفهام . وكان غالباً ما يخرج الاستفهام فى هذه  
الأشعار عن حقيقته إلى الاستفهام التعجيبى ، أو الإنكارى أو التوبيخى ،  
أو يريد به النفى . إذ يراه الشاعر حينئذ أبلغ فى ردع النفس وزجرها  
وحثها على سلوك طريق الهدى والصواب ، كما نجد فيه تقوية للمعنى

١ - ديوان البارودى ٢٦٢ .

٢ - ديوان البارودى ٥٨٦ .

وتقريباً له وتأكيده . ومن ذلك قول البارودي : <sup>(١)</sup>

يا قلبُ مالك لا تطيق من الهوى ؟ يا قلبُ مالك ؟  
أو ما بدا لك أن تعودَ عن الصَّبا ؟ أو ما بدا لك ؟  
أم خلت أن يد الزمان قصيرةً عن أن تسالك ؟

فالعرض من الاستفهام في هذه الأبيات قد يراد به الإنكار . فهو  
ينكر على نفسه الميل عن الهوى والبعد عن الهدى ، والركون إلى الدعة  
والسكون .

ومنه قوله : <sup>(٢)</sup>

مق أنتَ عن أحوقِّ الغي نازعٌ ؟ وفي الشيب للنفس الأيةُ وازعٌ

فالعرض من الاستفهام هنا التوبيخ والتفريع الذي قصد به زجر هذا  
العاصي الذي لا يرتدع ولا يترك ما فيه من طو وعصيان وغم ظهور  
الشيب في رأسه وإنذاره بقرب أجله ودنو الموت منه .

ومنه قوله : <sup>(٣)</sup>

أى شيء يبقى على الخلدانِ والسمايا خصمة الإنسان ؟

١ - ديوان البارودي ٣٩٧ .

٢ - ديوان البارودي ٣١٣ .

٣ - ديوان البارودي ٥٧٣ .

فالفرض من الاستفهام هنا النفي الذي يهدف الشاعر من وراءه  
توكيد نفي بقاء شيء على حاله أو مخلوده في هذه الحياة لأن الثابتا موكلة  
بالقضاء على كل شيء .

٣ - كما قد يلجأ البارودي إلى أسلوب النهي لتحقيق الألفة بين  
المتلقى وشعره . ومن أمثلة ذلك قوله : <sup>(١)</sup>

فلا تحسب الدهر لعبة هازل لما هو إلا صرفه والفجائع  
وقوله : <sup>(٢)</sup>

فلا تبتس بالامر تحشى وقوعه فقد يأمن الإنسان من حيث يفرق  
٤ - كما استعان بأسلوب التعجب في بعض الأحيان لتحقيق هذه  
الألفة . ومن أمثلة ذلك قوله : <sup>(٣)</sup>

ما أطيب العيش لولا أنه فاني تلى النفوس ولا يلى الجديان  
وقوله : <sup>(٤)</sup>

فيا لك من زمان عشت فيه نديم الراح والميف الكعاب

١ - ديوان البارودي ٣١٤ .  
٢ - ديوان البارودي ٣٨٧ .  
٣ - ديوان البارودي ٥٨٤ .  
٤ - ديوان البارودي ٥٣ .

ولاشك أن مثل هذه الأساليب الإنشائية لها أثرها في جمال الأسلوب وقوة لغة الشعر ، حيث يكون لها دورها في تنبيه المتلقي وتطلعه إلى ما يلقى على مسامعه من شعر فيقوى تأثيره بما فيه من معنى .

- كما وضع البارودي لغة الزهد في شعره بإيراد الكثير من الحكم البارة التي كان يهدف من وراءها تلخيص المعنى الذي يتحدث عنه في صورة موجزة يسهل حفظها واستيعابها .

ومن أبيات الحكمة في شعر الزهد عند البارودي قوله :<sup>(١)</sup>

إنما هذه الحياة غرورٌ      تنقضي بالشقاء والخمران

وهي حكمة تلخص لنا أمر هذه الحياة الدنيا في جملة قصيرة : ( هذه الحياة غرور ) ولا تنسى أن الشاعر عبر عن هذا المعنى في أسلوب القصير الذي يفيد أن الحياة الدنيا لا تتعدى عن كونها غرورا لا لبسات لها ولا دوام . وهو معنى مأخوذ من مثل قوله - تعالى - " وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " <sup>(٢)</sup> مع الاختلاف في طريقة القصير .

ومنها قوله مفصحا عن فناء كل مخلوق : <sup>(٣)</sup>

١ - ديوان البارودي ٥٧٤ .

٢ - من الآية رقم ٢٠ من سورة الحديد .

٣ - ديوان البارودي ١٨٩ .



بلينا وسربال الزمان جديداً وهل لامريء في العالمين مخلود ؟  
وأبان البيت عن قصر مدة بقاء الإنسان في هذه الحياة . وقد أكد  
الشاعر المعنى بالعبارة في الشطر الثاني الذي جاء في أسلوب الاستفهام  
المراد به النفي زيادة في التأكيد وتقوية المعنى .  
ومنها قوله متحدثاً عن طمع الإنسان في هذه الحياة على الرغم من  
جهله بمصيره فيها : <sup>(١)</sup>

يودُّ الفق أن يجمع الأرض كلها      إليه ولا يدري ما الله صانع  
وقد زين البارودي بيته بهذه الكناية التي أبانت عن شدة طمع هذا  
الإنسان في الحياة ؛ حتى إنه ليتمنى أن يستحوذ على ما في الأرض كلها  
لنفسه . رغم جهله بما سيحدث في الغد .  
ومنها قوله يتحدث عن سرعة انقضاء الحياة وانتهائها : <sup>(٢)</sup>  
فيا ربّما بات الفق وهو آمن      وأصبح قد سُدَّتْ عليه المطالعُ  
والبارودي هنا يؤكد على عدم استقرار الحياة على حال . فما بين  
عشية وضحاها يغير الله الأمور من حال إلى حال .  
ومن هذا الباب قول البارودي : <sup>(٣)</sup>

١ - ديوان البارودي ٣١٤ .

٢ - ديوان البارودي ٣١٤ .

٣ - ديوان البارودي ٤٤٣ .

قد يمين الأعزل وهو الفقى ويشجع النكس إذا ما اعتقل  
والبيت بين قيمة الاستعداد للأمور وأهميته فى تحقيق النصر . فلا بد  
من اقتران الشجاعة بالاستعداد والتأهب لخوض الصعاب من الأمور . فلا  
يكفى أحدهما فى التغلب عليها .  
وكثيرا ما يأتى البارودى فى ثانيا شعره فى الزهد بالحكمة التى تدعو  
إلى التفكير فى الوجود والموت ، وفى الكون من حولنا . ومن ذلك  
قوله: <sup>(١)</sup>

تأمل إلى الدنيا بعين بصيرة لعلك ترضى بالقليل من القسَم  
وهو فى هذا بين أن الإنسان لو تدبر أمور هذه الحياة بعين بصيرة  
وتعرف على حقيقتها لأراح نفسه ، واكتفى من متاعها بالقليل ، ورحس  
بما قسمه الله له فيها .

وقوله: <sup>(٢)</sup>

تأمل قليلا يا ابن ودى هل ترى على صفحات الأرض غير معالم؟  
والبيت يؤكد على عدم بقاء الإنسان فى الحياة أكثر من أمد محدود،  
وليس هناك من هو مخلد فيها ؛ فقد عاش على الأرض العديد من الأمم

١ - ديوان البارودى ٥٠٦ .

٢ - ديوان البارودى ٥٠٨ .

قبلنا ، كالمهم قد بادوا وهلكوا ولم يتركوا وراءهم إلا معالم تنبئ عن  
أخبارهم.

ولا نسي أن البارودي قد حلّى بيته بعبارة ( يا ابن ودي ) التي  
تعبّر عن صدقه وأمانته في حديثه مع من يخاطبه ، ثم بأسلوب الاستفهام  
المراد به النفي والذي يؤكد المعنى ويقويه .

ومن ذلك أيضا قوله : <sup>(١)</sup>

إذا لم يكن بين الحياة وضدّها سوى مهلة فاللحد أشه بالمهد  
وهو أيضا يؤكد على قصر مدة وجود الإنسان في هذه الحياة  
وسرعات ما يفارقها ويفارق ما شيد فيها .

إنّ غير ذلك من الحكم الكثيرة التي يطلع عليها من بقر شعر  
الزهد في ديوان البارودي . وقد جاء بها في معان مختلفة ، مؤيّن بها لغة  
الشعر عنده ، وملخصا بكل منها موقفا يتناسب مع جو القصيدة التي  
تأتي الحكمة في ثنائها .

وغير ذلك من الوسائل التي لجأ إليها البارودي لتحسين لغة شعره  
وتحقيق الألفة بينها وبين المتلقى .

هـ - براعة التصوير :

والظاهرة الخامسة من الظواهر الفنية في شعر الزهد عند البارودي هي البراعة في التصوير ؛ فقد اتسمت الصورة الفنية في شعر الزهد عنده بالبساطة والسهولة والوضوح في أغلب الأحيان ؛ وذلك لتحقيق السلاسة بينها وبين لغة هذا الشعر ومعانيه . ومع بساطة هذه الصور وسهولتها ووضوحها فإنها تتسم بكثير من مظاهر العمق والابتكار ، كما جاءت غنية بعناصر التحليل والإبداع الفني .

ومن صور البارودي الرائعة في زهده قوله مصورا حال الدهر وماهيته وسرعة تقلبه بأهله :<sup>(١)</sup>

وما الدهر إلا دفترٌ في خلالي تصاويرٌ لم يعهد فنٌّ مثالي  
ففي صفحة منه زمانٌ قد انقضى وفي وجه أخرى دولةٌ ورجالٌ

فقوة الخيال لدى البارودي جعلته يصور - هنا - الدهر في صورة دفتر متعدد الصفحات ، ولكنه مليء بالتصاوير والمناظر . والمقلب لصفحات هذا الدفتر يروعه ما فيها من صور ومناظر . ففي صفحة منه يرى صورة لزمان قد انقضى وأخفى فيه الدهر على أهله . وفي صفحة أخرى يرى دولة ما زالت قوية تغافل عنها الدهر إلى حين . وفي صفحة

ثالثة يرى صورة ثالثة ، ورابعة ... وكلها تدل على تقلب الدهر وتغيره وعدم بقاءه على حال .

وهذه صورة أخرى عبر بها البارودي عن سرعة تقلب الدهر بأهله وعدم استقراره على حال فيقول :<sup>(١)</sup>

فالدهر كالدولاب يحفّضُ عاليًا من غير ما قصد ويرفعُ سافلًا

فقد صور البارودي في هذا البيت الدهر بالدولاب الذي لا يتوقف عن الدوران ، وكلما دار انخفض من بعاليه ، وارتفع من كان سافلًا ، وبلا حساب ولا نظام. وهكذا الدهر دائم التقلب والدوران بأهله ، وفي كل دورة من دوراته يرفع أناسًا ويخفض آخرين ، وبدون نظام ولا سابق إنذار . وهي صورة بدیعة رصمها البارودي بخیاله ، وأبرز بها الشيء المعنوی المفقول في صورة محسوسة مشاهدة للعيان حتى يرتدع الإنسان المخدوع ، ولا يغتر بإقبال الحياة عليه ، فإقبالها عليه لن يدوم وسرعان ما تولى وجهها عنه وتقبل على غيره ... وهكذا .

واقراً معي قوله<sup>(٢)</sup>

وما هذه الأجسامُ إلا هياكلٌ مصوّرةٌ فيها النفوسُ ودائعُ

١ - ديوان البارودي ٤٤٤ .

٢ - الديوان ٣١٥ .

فقد صور البارودي في هذا البيت أجسام البشر بالأوعية التي خلقها الله ﷻ وأودع فيها النفوس والأرواح إلى أجل مسمى حتى إذا أراد - سبحانه - استردادها لم يملك إنسان أن يمنع أو يعترض ، فهو خالقها وهي رهن لمشيئته تعالى .

وتأمل معي قوله : <sup>(١)</sup>

وما الدهر إلا مستعدٌ لوئسبةٌ فحذركَ منه فهو غضبانٌ مطرِقُ

فقد صور الدهر بصورة حيوان مفترس يفترس الناس بمخالبه وأنيابه . وهو دائما مستعد للوثوب على من يطمئن إليه ويتخذ به . ولم يكف الشاعر بهذا ولكنه صورته بصورة الحيوان المفترس الغضبان الذي إذا هجم على فريسته أوقع بها ولم تتمكن من النجاة من بين أنيابه ومخالبه . ولذا ينصح البارودي مخاطبه بأن يحذر هذا الدهر وبغائه .

إلى غير ذلك من الصور الكثيرة المعبرة التي تؤثر في قارئ شعر البارودي أو سماعه . وصدق الدكتور شوقي ضيف حينما قال معبرا عن براعة البارودي في تصاويره : <sup>(٢)</sup>

\* لا يروغنا البارودي بصدقته في وصف أحاسيسه وما مر به من

١ - الديوان ٣٨٧ .

٢ - البارودي واند الشعر الحديث ١٨٨ .

أحداث الحياة ، وأحاط به من واقعها في بيئته وغير بيئته فحسب . بل يروغنا أيضا بملكته الخيالية التي أتاحت له تصوير المشاهد الكبيرة تصويرا ينبض بالحركة والحياة الدافقة . ولا نقصد المشاهد الحسية وحدها بل نقصد المشاهد النفسية ؛ إذ استطاع دائما أن يرسم ما يجري من حوله وفي نفسه رسما تخطيطيا دقيقا .

كما كان الدكتور على الحديدى صادقاً كل الصدق وهو يسجل رأيه في دقة التصوير وبراعته في شعر البارودي بجانب بعض سماته الأخرى فيقول :<sup>(١)</sup>

" لم تكن جزالة العبارة ، وبهجة الديباجة ، ورصانة التراكيب هي كل الجديد الذي جاء به البارودي . بل من الجديد الذي شد الأسماع لشعره ودعا إلى الإعجاب به معالجته الأدب التصويري . فعدسة عينيه اللاقطة تصور الواقع في بساطة وسلاسة وقوة تحس معها يرسل النفس على سجيتها ؛ لأنه لا يتعمق ولا يعتمد إلى التعقيد أو الغموض ، ولا يتكلف الاستعارات أو السر في أحاديث البديع وذروب الصناعة . وإنما يرسل نفسه على سجيتها إرسالاً فيصور ما هو أمامه ويعبر عن عواطفه كما يريد أن يعبر الناس فلا يستطيعون . واعتماد البارودي على حواسه

في شعره صفة بارزة فيه وخاصة المنظور الذي ظل يزداد وضوحاً مع الأيام وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص . وهو حين يسجل الصور بالفاظه الموسيقية لم يكن يسجلها في صمتها وسكونها على عادة عشاق الطبيعة الصامتة ، بل في نشاطها وتحركها . حتى يخيل لقارئ شعره وسامعه أن الحياة تنبض في كل جزء تقع عليه العين وتحيط به الباصرة " .

#### و - روعة الموسيقى :

من المعروف أن للموسيقى دوراً بارزاً في عملية الإبداع الشعري ، إذ فيها للشاعر متنفس كبير لإخراج شحنة من الانفعالات ، ودفقات من التجربة ، لا تتمكن الألفاظ الخمسة ، ولا المعاني المجردة من الإفصاح عن خباياها . ومن هذا المنطلق يمثل الإبداع الموسيقي في شعر الشاعر - بما يحمله من ترويمات خاصة بتفعيلات الوزن ، أو اتحاد القوافي وتناغمها، وبما تعبر عنه موسيقى الحروف المتناسقة غير المتنافرة - أهمية كبيرة في اكتمال روعة الشعر وقوة تأثيره في الملقى .

وقد عرف البارودي بروعة موسيقاه . " وهي روعة تسرد إلى احتفاظه بخصائص العبقريّة الموسيقية لشعرنا العربي في آياته القديمة الخالدة التي حفرت ألفتها في ذاكرة الزمن " (١٦) . واستطاع البارودي أن يطوع

١ - البارودي رائد الشعر الحديث - د / شوقي هيف ٢٠٠٦ .



هذه الموسيقى الموروثة لتحمل في صدق ودقة تصوير أحاسيسه ومشاعره الذاتية والقومية بكل دقاتها .

وإذا كان للموسيقى عامة الأثر العظيم في العمل الأدبي فسيان يمين الشاعر وما يؤثره من وزن لعمله ، ثم بين الوزن ذاته والغرض الشعري علاقات يتحتم على الشاعر إدراك أبعادها وكشف طبيعتها وسير أغوارها .

ومن قراءتنا لشعر الزهد عند البارودي نلاحظ أنه نظم شعره في الزهد على كل نوع من أنواع بحور الشعر العربي العروضية الطويلة منها والقصيرة ، والنامة والجزوءة ، والشائعة الاستعمال منها والقليلة الاستعمال . وإن كنا نلاحظ أنه أكثر من الإنشاد على البحور الطويلة ، وذلك لأن موسيقاها تمتدة النغمات تتناسب مع الموسيقى الداخلية النابعة من وجدانه ، والتي تمكنه من حشد كثير من المعاني والأفكار فتحدث في سامعها أثرا جيلا يصل إلى العقول والقلوب من أقصر طريق . وهو بذلك يوائم بين موضوع شعر الزهد وطبيعته ، وبين الوزن العروضي الذي يعبر من خلاله عن معاني وأفكار هذا الفن . وفي هذا المقام يذكر الدكتور محمد غنيمي هلال — مع إيمانه بأن القدماء من العرب لم يتخذوا لكل موضوع وزنا خاصا أو بحرا خاصا من بحور الشعر القديمة — بأن

الشعراء عادة ما يلجأون إلى البحور ذات التفاعيل الكثيرة في حالات الحزن والشجن ؛ وذلك لاتساع تفاعيل تلك الأبحر لحديث النفس وما يتناها من انفعالات وأحزان . ولاتساع مقاطعها وكلماتها لأنات الشاعر وشكواه . أما مجيء بعض هذه الانفعالات والآهات على الأبحر المجزوءة أو القليلة التفاعيل كالخفيف والرمل والمتقارب ونحوها فيعملل يكونها نتيجة انفعال أو اضطراب مفاجئ تنوأل إثره أنفاس الشاعر ، فسلا يجد للتعبير عنها أصلح من الأبحر المجزوءة أو القصيرة<sup>(١)</sup>.

وهذا يعينه ما نلاحظه في شعر الزهد عند البارودي ؛ فقد جاء الكثير منه على الأوزان التامة الطويلة الموسيقى الكثيرة التفاعيل لتساعده على إخراج ما بداخله من انفعالات وأحزان . ووجدناه في أحيان أخرى يلجأ إلى الأوزان القصيرة أو المجزوءة التي تدل على تعرضه لانفعال مفاجئ توالت إثره أنفاسه سريعة متلاحقة فاختار للتعبير عنها تلك الأوزان . وهذا ما يجعلنا نحكم عليه بأنه كان في شعره في هذا الساب ملائمة بين انفعالاته وأحاسيسه وبين الوزن العروضي الذي صاغ عليه وعبر من خلاله عن هذه الانفعالات والأحاسيس .

كما نلاحظ أن البارودي قد استخدم بعض الألوان البيعية

١ - راجع : النقد الأدبي الحديث - د / محمد غنمي هلال - دار الثقافة - بيروت - طعة عام ١٩٧٣ - ص ٤٦٨ .

استخداما بارعا ليكمل بها حسن تأثير الموسيقى الداخلية في متلقى شعره .  
ولا سيما أنه — كما عرفنا فيما سبق — كان محسنا في استخدامها . ويجيدا  
في وضعها مكانها فلم يكن مكثرا منها ، أو مستكرها لشيء منها دون أن  
يتطلبه المعنى . لذا جاءت موسيقاه البديعية سهلة غير معقدة لا يساردة ولا  
متكلفة غير مفسدة لجرس الأبيات اللفظي .

فإذا قرأنا — على سبيل المثال قول البارودي :<sup>(١)</sup>

لا البار ينتجو من الحمام ولا يخلص منه الحمام والحرب

لوجدنا أنه بمقدار ما بين ( الحمام والحمام ) من تجانس لفظي واتفاق  
حرفي يقدر ما بينهما من بعد معنوي . فالحمام — بكسر الحاء — يسير في  
نفوسنا نوعا من الرهبة والخوف والوجل . وخاصة حينما نقرأ أن الموت  
لا ينتجو منه أحد . أما الحمام — بفتح الحاء — فيثير في النفوس لونا مسن  
الأمّل والسلام والطمأنينة والتطلع إلى الحياة الحالية من الآلام والشقاء .  
ولكن الشاعر جمع بينهما ليبين أن الموت يقضي على كل شيء حتى ولو  
كان هذا الشيء عنوان الأمل والسلام والرغبة في الحياة دون منغصات  
وآلام .

فموسيقى التجانس بين اللفظين حاضرة ، وجمال المعنى متحقق غير

غالب وقام المعنى وصلاحيته وصحته لا تقل أهمية وشأنا عن أهمية الجرس الموسيقي والجمال اللفظي .

وإذا قرأنا قول البارودي<sup>(١)</sup> :

للك الحمد إن الحبر منك وإنسي لصنعك يارب السماوات شاكر  
فليس لمن تقصيه في الناس نافع وليس لمن تدنيه في الناس حائر  
ولا لامرئ أهتمته الرشد خاذل ولا لامرئ أوردته الغي ناصر

فللمقابلة في البيتين الثاني والثالث دور لا يخفى في حسن موسيقى الأبيات وجمالها ، فضلا عن توكيد المعنى وتقويته مع مزيد من الظهور والبيان حين تولى الجمع بين ( ليس لمن تقصيه نافع ) و ( ليس لمن تدنيه ضائر ) في البيت الثاني ، والجمع بين ( أهتمته الرشد خاذل ) و ( أوردته الغي ناصر ) . وهكذا بلغة ما نراه في شعر الزهد عند البارودي من محسنات بديعية . فلها كلها في شعره نوع من الجمال البديعي المستحسن ، والترتيب الموسيقي المستعذب الذي تسعد به نفس كل متلق ، ويحقق لها قلب كل قارئ ، وتطرب لها أذن كل سامع .

أما عن جمال الموسيقى الناتجة عن الجرس الصوتي فقد كان البارودي موافقا إلى حد كبير في اختيار أعين الألفاظ دلالة معنوية ، وأرق الحروف

وتينا صوتيا موسيقيا . فكان يختار من الألفاظ والحروف ما يحقق جرسا صوتيا يعطي إيحاءً ظاهرا ودلالة متميزة ، ونجد هذا الجرس الصوتي العذب متحققا بجلاء من خلال توالي حروف المد وحركاته المنظمة في قول البارودي على سبيل المثال <sup>(١)</sup> :

أبسن الألى شلقوا الحو	ر وشيدوا ذات العماد
ملكوا التهايم والنجا	يد والخواخير والبوادي
بل أبسن أصحاب الوقو	د ؟ وأين أرباب الجلاي ؟
الطساعيمون الطساجو	ن القسائلون بكل لساوي
الكاشفون الضمر والس	سعاقون عن ذنب العباد

فلحروف المد وما صاحبها من محسنات بديعية واستقهاطات مجازية دورها الكبير في إحداث نوع من الموسيقى العذبة المأدبة في نغماتها الصاعية في أثرها والفعال النفس بها . فيحروف المد واللين وضوح وبهاء وبروز في النطق ، وظهور في السمع . وفي ذلك الوضوح دلالة معنوية على ما لهذه الحروف من صفة صوتية خاصة ناتجة عن اتساع مخرجها هواء الصوت ؛ مما يساعد الشاعر على التعبير بصوت أقوى ولغة أطول عن المعاني التي تضمنتها الأبيات . مما يؤدي إلى قوة الأثر وشدة التأثير . وهذا الذي لحقناه في الأبيات السابقة نحسن بحسبه في تفسير

البارودي<sup>(١)</sup>:

أهفكم الدنيا عن الأجرة      وهي من الجهل بكم ساجرة  
وغركم منها - وأنتم بكم      جوع إليها - قدزها الباجرة  
يمشي الفسق تيهاً وفي لويه      من معطفه جيفة جاجرة

فلاختيار الكلمات ذات حروف المد ما يحقق هذا النوع من الموسيقى المؤثرة في نفس المتلقي ؛ خاصة حينما تتعاقب هذه الموسيقى مع براعة التصوير التي تضمنتها الأبيات . فإن حروف المد - وخاصة الألف - من أوسع الحروف مخرجاً وأطولها امتداداً بالصوت ، وأوسعها انتشاراً وشغلاً للمساحة الزمنية ، وهذا ما يجعلنا نشعر بشيء من التعاقب والتألف بين كل من الداليتين الصوتية والمعنوية بالكلمة المسدودة في الأبيات ، وسرعان ما تنتقل تلك الدلالة إلى المعنى العام للأبيات مؤكدة إيـاه ، ومولقة لهدف الشاعر منها .

ولولا حبب المقام لاستوفيت شرحاً لمزيد من النماذج والأبيات غير أن فيما ذكرته كفاية ، وفيها الدليل على توليف البارودي في شعره في هذا الفن .

ويكفل هذه الوسائل وغيرها كان يهدف البارودي إلى إحداث التأثير

الوجداني في القارئ والسماع . وهذه الوسائل من الضروري توافرها في فن شعبي مثل فن الزهد . " لأن هذا الشعر يعتمد على التأثير والتفاد . ولن يتم له ذلك إلا بقرب لغته وألفتها . وباعتمادها على التلوين الصوتي المؤثر والتصوير الفني الدقيق . وهذه الجوانب الفنية تستلزم صنعة متأنية ، إلى جانب صدق الشعور ، وقوة العاطفة وراء هذا الشعر " (١) .

وبعد : فهذه أهم الظواهر الفنية البارزة في شعر البارودي في هذا الباب عتمت بما حديثي عن شعر الزهد الذي يعد من الموضوعات المهمة في شعر البارودي . والذي كانت له دوافعه ومعانيه وسماته الخاصة . والتي أرجو أن أكون قد قمت بواجب توضيحها وبيانها وأهم الآراء حولها .

١ - شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة ص ٣٣٩ .

#### تقويم :

بعد أن عرفنا - من خلال هذا البحث - شيئا عن حياة البارودي ،  
وتعرفنا على معنى الزهد ، والفرق بينه وبين التصوف في المفهوم الإسلامي  
نستطيع أن نقول : إن البارودي قد لبى بشعره في الزهد نداء الإسلام في  
نفسه ، وتوجه إلى الله - سبحانه وتعالى - في شدة بعد أن تبدلت حياته  
وسارت في اتجاه آخر بعيدا عن المناصب وزخرفها وبهرجتها ، وتوالت  
عليه من الحياة ومصائبها فأمدنا بهذا الكم الكبير من هذا الشعر الزهدي  
والذي عرفنا أنه يزيد في ديوان البارودي عن ثلاثين قصيدة ومقطوعة .

ومن خلال قراءتنا لشعر الزهد عند البارودي وما كتب في الفصل  
الثاني من هذا البحث عن معاني هذا الشعر وأفكاره عند البارودي نعرف  
أن الشاعر قد تناول في هذا الفن معظم الأفكار والمعاني التي وردت في  
شعر الزهد عند شعراء العصور الأدبية السابقة على العصر الذي وجد فيه  
البارودي ، وإن كانت هناك بعض المعاني التي قل تناولها . ومن أهم  
هذه المعاني القول في الرزق وتقدير الله له حيث تناول هذا المعنى في شعره  
مرة أو مرتين فقط وفي أبيات قليلة ، ولم يكرر الكلام فيه كثيرا كما فعل  
مع كثير من المعاني .

كما عرفنا أيضا من خلال هذا البحث صدق البارودي في زهده



وأن كثيرا من شعره في هذا الباب يمثل صورة صادقة لعزوفه عن الحياة وعدم حرصه عليها وعلى متاعها، بل وعن كرهه لها وطيفه بها خاصة في الفترة الأخيرة من حياته . تلك الفترة التي نفي فيها وأبعد عن أهله ووطنه وناله خلالها الكثير من الشدائد والنكبات مما جعله يلجأ إلى شعره يعبر به عن أحاسيسه وخلجات نفسه والفعالات ومشاعرها .

كما عرفنا أن شعر الزهد عند البارودي يتسم بكثير من السمات والظواهر الفنية . وهي ظواهر وسمات توافرت في معظم فنون شعره الأخرى . وكان من أبرز هذه السمات والظواهر : السهولة والوضوح ، والدقة في التصوير ، والبعد عن الصور البديعية المتكلفة ، بجانب تأثره بالقرآن الكريم والمعاني الإسلامية .

وهكذا أمدنا البارودي بلون من ألوان الأدب جاء به مليتا بالقيم الفنية وأضاف إلى موضوعاته الشعرية موضوعا فيه يسمو بنفسه ويرتفع بها عن الدنيا ويساعد على تظهيرها من الشرور والآثام . ولا شك أن ما تعرض له البارودي من شدائد ونكبات في الفترة الأخيرة من حياته كان من أهم الدوافع التي دفعته إلى إنشاد الكثير من هذا الشعر الذي يعد بحق نارا فنيا جديرا بالبحث والدراسة .

### مراجع البحث

#### - القرآن الكريم .

- ١ - الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر . د / عبد القادر القسط - مكتبة الشباب بالقاهرة - ١٩٨٦ م .
- ٢ - أدب الزهد في العصر العباسي . د / عبد الستار السيد متسولي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٤ م .
- ٣ - أسس النقد الأدبي عند العرب . د / أحمد أحمد بدوي - دار فكتة مصر للطبع والنشر - ١٩٩٤ م .
- ٤ - الأعلام . خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - الطبعة الخامسة - ١٩٨٠ م .
- ٥ - الأغاني - المجلد الأول . أبو الفرج الأصفهاني . نشر دار الثقافة - بيروت - ١٩٥٥ م .
- ٦ - الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري . د / علي محمد هاشم - دار الأفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٢ م .

- ٧- البارودي رائد الشعر الحديث . د / شوقي ضيف - دار المعارف  
- الطبعة الثالثة - ١٩٧٧ م .
- ٨- تاريخ بغداد . الخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية - بيروت -  
بدون تاريخ .
- ٩- دائرة المعارف الإسلامية - المجلد العاشر . ترجمة أحمد الشفقتاوي ،  
وحافظ جلال .
- ١٠- ديوان محمود سامي البارودي . شرح وتعليق : علي عبد المقصود  
عبد الرحيم - دار الجبل - بيروت - الطبعة الأولى  
- ١٩٩٥ م .
- ١١- شعراء الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة . د / علي نجيب  
عطوى - المكتب الإسلامي بيروت - الطبعة الأولى  
- ١٩٨١ م .
- ١٢- شعراء مصر وبنائهم في الجبل الماضي . عباس محمود العقاد - دار  
لمنظمة مصر - القاهرة - بدون تاريخ .
- ١٣- العصر الإسلامي . د / شوقي ضيف - دار المعارف - الطبعة  
الثامنة - بدون تاريخ .

- ١٤ - العقد الفريد . ابن عبد ربه الأندلسي - تحقيق : محمد سعيد  
الغريان - طبعة دار الفكر - بدون تاريخ .
- ١٥ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . ابن رشيق القيرواني -  
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - دار الجيل -  
بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٧٢ م .
- ١٦ - فصول في الأدب الحديث والنقد . د / يوسف عز الدين - طبعة  
دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض - ١٩٨٢ م .
- ١٧ - في الأدب الحديث . د / عمر الدسوقي - دار الفكر العربي -  
الطبعة السابعة - دار العلم للملايين - ١٩٨٠ م .
- ١٨ - في الأدب العربي المعاصر - القسم الثاني . د / إبراهيم عوضين -  
مطبعة السعادة - الطبعة الأولى - ١٩٧٦ م .
- ١٩ - في الشعر العباسي - الرؤية والفن . د / عز الدين إسماعيل -  
المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٤ م .
- ٢٠ - في الشعر العباسي نحو منهج جديد . د / يوسف عفيف - مكتبة  
غريب - بدون تاريخ .
- ٢١ - قضية التصوف المتقد من الضلال . د / عبد الحليم محمود -  
دار المعارف - الطبعة الثانية - بدون تاريخ .

- ٢٢ - لسان العرب . ابن منظور المصري - طبعة دار لسان العرب - بيروت - إعداد وتصنيف : يوسف الخياط ونسبهم مرعشلي .
- ٢٣ - محمود سامي البارودي . د / عمر الدسوقي - دار المعارف - سلسلة توابيع الفكر العربي - الطبعة الخامسة - ١٩٩٣ م .
- ٢٤ - محمود سامي البارودي . د / محمد صبري - مكتبة الشباب بالقاهرة - ١٩٢٣ م .
- ٢٥ - محمود سامي البارودي شاعر النهضة . د / علي الخديدي - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الثانية - ١٩٦٩ م .
- ٢٦ - المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول . د / عزيز فهمي - تحقيق : محمد قنديل البقلي - دار المعارف - بدون تاريخ .
- ٢٧ - النقد الأدبي . د / أحمد أمين - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٦٧ م .
- ٢٨ - النقد الأدبي الحديث . د / محمد غنيمي هلال - دار الثقافة - بيروت - طبعة عام ١٩٧٣ م .

## المفهرس

٥	المقدمة .....
٩	تمهيد .. البارودي وشعره .....
٩	البارودي .....
١٣	ثقافة البارودي .....
١٥	شعر البارودي .....
٢٩	الفصل الأول : مفهوم الزهد وتاريخه في الأدب العربي .....
٢٩	مفهوم الزهد .....
٣٣	الفرق بين الزهد والتصوف .....
٣٧	الزهد ودوافعه في الأدب العربي .....
٤٩	الفصل الثاني : الأفكار ومعاني شعر الزهد عند البارودي .....
٥٠	أ - توبه الله وتقديسه وتعظيمه .....
٥٣	ب - التوبة والتدب .....
٥٨	ج - فكرة المصير ، أو الحياة والموت .....
٧٤	د - الوعظ والإرشاد والتوجيه .....
٩٠	مدى صدق البارودي في زهده .....
١٠٥	الفصل الثالث : الطواهر الفنية في شعر الزهد عند البارودي .....
١٠٥	أ - التأثير بالقرآن الكريم .....
١٠٩	ب - بناء القصيدة وحملوها من المقدمة التقليدية .....

١١٣	جـ - الصور البلاغية .....
١٢٥	د - لغة الزهد .....
١٣٩	هـ - براعة التصوير .....
١٤٣	و - روعة الموسيقى .....
١٥١	تقوم .....
١٥٣	مراجع البحث .....
١٥٧	الفهرس .....







رقم الإيداع بدار الكتب  
٩٨ / ٩١٥٥  
الترقيم الدولي 6427 - 19 - 977

دار الجيار للطباعة والنشر